

جائزة الألوكة

مسابقة انصر نبيك.. وكن داعيًا

رسول الله ﷺ الرحمة المهداة



المشاركة الفائزة بالجائزة الرابعة

بفرع البحث العلمي

بقلم

محمد علي الخطيب







جائزة الألوكة

مسابقة انصر نبيك.. وكن داعيا



محمد علي الخطيب









تقديم

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السماوات وملء الأرض وملء مابينهما، والصلاة والسلام على إمام الحقِّ والهدى، سيِّدنا محمد معلِّم الناس الخير، وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه واهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن **موقع الألوكة** أخذ على عاتقه منذ تأسيسه أن يكون رسالةَ حقٍّ سامية إلى أبناء الإسلام في كلِّ مكان، يقدِّم لهم العلمَ النافع، والنصحَ الصادق، ويشيد لهم الصُّوى والعلامات الهاديةَ إلى صراط ربهم القويم.

ولما كان العلم بالكتاب والسنة وهدي النبيِّ الكريم ﷺ خيرَ ما يقود البشرية إلى جادَّة الصواب، وإلى طريق النصر والتمكين، رأينا تحفيز أبناء الإسلام عمومًا وطلاب العلم والباحثين خصوصًا، إلىٰ القراءة والمطالعة، والبحث والكتابة، بمسابقات تُجرى بين حين وآخرَ تتناول موضوعات تهمُّ المسلمين اليوم، وتوضح لهم الطريق، وتكشف عن عيونهم حجب الظلام.

وكان من سوالف الأقضية -في مرحلة إنشاء الموقع وإعداده- أن ينشرَ رسامٌ دانماركيٌّ رسومًا (كاريكاتورية) ساخرة من نبيِّ الهدى عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم! ونتج عن هذا الفعل الأحمق ردودُ أفعال كثيرة ومتباينة من أبناء الإسلام في أقطار الأرض كافَّة، استنكارًا ورفضًا لهذه الإساءة القبيحة.. ورأينا أن



خير ردٍّ على هذه الإساءة هو استثمارُ عواطف المسلمين الصادقة في بيان شمائل نبيِّهم ﷺ وخصاله الكريمة ورحمته الفريدة.. وتقديمُ صورة صحيحة عنها إلى الغرب، إذ لربما لو عرف هذا الرسامُ وغيره من الغربيِّين الشانئين والحاقدين على الإسلام ونبيِّه، لو عرفوا السيرةَ الصحيحة لنبيِّ المسلمين وحقيقةَ دعوته لوقفوا منه موقفَ التقدير والتبجيل على غِرار مواقف كثيرينَ من أبناء جلدتهم المنصفين.

وقد رأينا اهتبالَ هذه الفرصة لحثِّ الكتَّاب والأدباء والمفكرين على تسخير مَلَكاتهم ومواهبهم في نصرة نبيِّهم ﷺ والذبِّ عن عرضه الشريف بكتابة بحوث ومقالات وقصص.. فكانت مسابقة الموقع الأولى بعنوان: (**انصر نبيَّك وكن داعيًا**)، ولقيت بتوفيق الله اهتمامًا كبيرًا من الإخوة والأخوات، فاق توقعاتنا، وأثمرت مشاركات متميِّزة مفيدة، ولله الحمد والمنَّة. وكان إعلان نتائج المسابقة في غُرَّة شعبان سنة **١٤٢٧**هـ.

وتعميمًا للفائدة، ونشرًا للعلم النافع، ننشُر هذه البحوثَ والمشاركات الفائزة، راجين أن يكتب الله لها القَبول بفضله وأن ينفعَ بها المسلمين وغير المسلمين في كلِّ مكان.. والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

المشرفان

د. سعد بن عبدالله الحميِّد **د. خالد بن عبدالرحمن الجُرَيسي**





توطئة

الحمد لله الرحمن الرحيم، العفو الكريم، نحمده سبحانه أن أرسل إلينا رسوله محمداً ﷺ رحمةً للعالمين، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، و﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[(١)]؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. صلى الله عليه وعلى إخوانه إبراهيم وموسى وعيسى وزكريا ويحيى وسائر النبيين، وبعد:

فقد دفعني إلى المشاركة في حملة موقع الألوكة لنصرة النبي ﷺ حبي لرسول الله ﷺ الذي يخالط مشاشة قلبي، ويجري في عروقي. وواجب النصرة له، والذبِّ عن حياضه. وطمعي بالفوز الكبير بأجر الدفاع عن الحبيب المصطفى، وأن أكون لسان حسان، فأقوم مقامه بأن أدفع عن نبي الرحمة المطاعن، وأجلي الشبهات التي يثيرها خصومه عن جهلٍ بسيرته وهديه ودينه ودعوته، وتعصبٍ ذميمٍ يحجب القلب عن

(١) الأعراف: ١٥٧.



رؤية الحق، والإذعان له. والله أسأل أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يفتح به قلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً.



١ - أهمية الموضوع:

تنبع أهمية البحث من المرحلة التي تمرُّ فيها الأمة، حيث أغرى ضعفُها عدوَّها بالجرأة عليها حتى اقتحم حماها، وانتهك محارمها، وشنَّ الغارة على رسولها، فصوَّره بأقبح صورة، ونعته بأقبح النعوت، وألصق به النقائص، ورماه بالرذائل، وهو منها براء، بل هو الكامل المبرأ من كل عيب، والمثل الأعلى والأسوة الحسنة للبشرية.

وقد كتبت هذا البحث في الرد على تلك الأباطيل.. وبخاصة الشبهة التي تطعن في رحمته ﷺ، وتصمه بالعنف والإرهاب والغلظة! وكتبته بلسان القوم، وإن كنت لا أتقن لسانهم، ولكني حاولت أن يكون قريباً إلى طريقتهم في التفكير، ومنهجهم في البحث، وتقديسهم للعقل، فكتبت بحثي على طريقتهم، وحصرت استدلالي في الأدلة والحجج العقلية والتاريخية والمادية المحسوسة، مع إثارة الوجدان ومناشدة الفطرة؛ ليكون ذلك أدعى إلى قبول الحق والإذعان له.

٢ - هدف البحث:

الدفاع عن رسول الله ﷺ، والذبُّ عن حياضه، وتفنيد شبهات خصومه، وبخاصة الشبهة التي روج لها الإعلام الغربي حديثًا، والصورة التي أبرزته للناس على أنه فظٌّ غليظٌ جافٍ، بل مجرم حرب! وفي الوقت نفسه التعريف به، وتقديمه لأهل الغرب الذين لا يعرفون عنه إلا الشبهات والافتراءات والمطاعن. وهو الغرض الذي ترمي إليه مسابقة (انصر نبيك وكن داعياً) التي دعت إليها، واحتضنتها حملة موقع **الألوكة** لمناصرة النبي ﷺ.

٣ - منهج البحث:

أكَّد البحث تفنيد الشبهة السالفة الذكر، وتعرضَ لشمائله الشريفة، وخص منها بالبيان والتفصيل رحمتَه وما يتصل بها. لكني قدَّمت له بتصوير رسول الله خلْقاً وخُلُقاً، وكتبت نبذةً يسيرة عن سيرته توطئة للموضوع، ومدخلاً ضرورياً له. وقد كتبته بلغة سهلة، غير أنها تخاطب العقل، وتحرك الوجدان، واعتمدت على كتب السيرة والشمائل والحديث النبوي، إضافة إلى بعض المصادر الأخرى المتعلقة بالموضوع. وقد قمت بتخريج الأحاديث والأخبار الواردة في البحث، لكن لم أستقصها جميعها، وبخاصة ما يتعلق بشمائله ونعته؛



لكثرتها؛ ولأنها لو خرَّجتها جميعها لاحتلت مساحة لا تسمح بها حدود البحث، غير أني أحلت إلى مراجعها من كتب السيرة والشمائل.

٤ - صعوبات البحث:

لم أجد صعوبة تذكر، بيد أن الوقت المتاح للبحث قصيرٌ برغم التمديد له، ولم يسعفني بالفرصة الكافية لرصد صورة محمد رسول الله ﷺ في أعين المستشرقين من مصادرها ومظانها الأصلية. ومن الصعوبات الجديرة بالذكر حمل القلم على الكتابة بلغة القوم علىٰ ما أسلفت، فقد درجنا على خطاب بني جلدتنا، وهم يعرفون رسول الله على ما يعرفون أبناءهم، ويؤمنون به، وإن هجروا كثيراً من أخلاقه وآدابه، أما الغربيون فيجهلون سيرته وشمائله وشخصيته ماعدا الشبهات والظنون إلا من رحم ربي!

٥ - الدراسات السابقة:

كتب السيرة والشمائل كثيرة جداً لا تكاد تحصىٰ، وقد استفدت منها في جمع مادة البحث، وعلى رأسها كتب المتون كالبخاري ومسلم وكتب السنن وسواها ثم كتب السيرة والتاريخ، وفي أولها السيرة النبوية لابن هشام وسيرة ابن كثير، ومصادر حديثة في السيرة مثل: السيرة النبوية في

ضوء المصادر الأصلية لمهدي رزق الله أحمد، والرحيق المختوم للمباركفوري، وفقه السيرة للغزالي. أما في الرحمة خاصة، وهو موضوع بحثي فقد وقعت على بعض بحوث مختصرة جداً لا تفي بالغرض، ليس غير.

ولم أعثر فيما اطلعت عليه على كتاب أو حتى بحث يتناول رحمة رسول الله ﷺ بالشمول والاستقلال والمنهج العلمي الذي سار عليه البحث الذي بين يدي، وهذا في حدود علمي القليل، وبحسب اطلاعي والله أعلم.

وفي ختام هذه التوطئة أتوجه بخالص الشكر والامتنان إلى القائمين على **موقع الألوكة** لنصرة النبي ﷺ والعاملين فيه، والباذلين في محبة المصطفى أموالهم وأنفسهم، راجياً من المولى سبحانه أن ينالوا شفاعته، وأن يشربوا من يده الشريفة شربةً لا يظمؤون بعدها أبداً. لا أريد الإطالة، فهذا جهد الغِرّ المقلِّ في هذا الميدان، فإن كنت قد أصبت فمن الله، و إن كنت قد قصَّرت فهذه صفة الإنسان، والله ولي التوفيق.









تمهيد

أبدأ بحثي بكلمة المستشرق الإسباني (جان ليك) في كتابه "العرب" قال: «لا يمكن أن توصف حياة محمد ﷺ بأحسن مما وصفها الله بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[(١)]. كان محمد ﷺ رحمة حقيقية، وإني أصلي عليه بلهفة وشوق». واستوقفتني عبارته «كان محمد ﷺ رحمة حقيقية»، وكأنه يغمز فيها من أبطال الرحمة الزائفة الذين يلبَسون للناس مُسُوك الضأن من اللين، وقلوبهم قلوب الذئاب.

إذا قرأت القرآن الكريم فستصادفك آية كريمة تصف الرسول محمداً ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾[(٢)]! قد تهزُّ رأسك، وتمطُّ شفتيك متعجباً ومنكراً، فالصورة التي ترسمها في مخيلتك عن محمدٍ صورة مرعبة منفِّرة، وربما تقفز إلى ذاكرتك صورة نيرون أو جنكيز خان أو هولاكو أو ستالين مثلاً، وأنا لا ألومك، ولا أحملك المسؤولية، فالمكتبة الغربية ووسائل الإعلام المتنوعة تضخ سيلاً من الأكاذيب والاتهامات والشبهات عبر الكتاب والمقالة والرواية والفلم والرسم والكاريكاتير وغيره من قنوات الإعلام والبث المباشر وغير المباشر ووسائل التعبير والتأثير الكثيرة الشديدة الخطر؛

(١) الأنبياء: ١٠٧ .   (٢) القلم: ٤ .



لتشويه الصورة الوضيئة لرسول الله أخي عيسى بن مريم عليهما أفضل الصلاة والتسليم، وهي الشبهات نفسها التي كان المستشرقون- وبخاصة المتقدمون منهم- يلقونها إلى الناس من قبل، مثل: جب، وأرنست رينان الذي ينكر أيَّ أثرٍ للعرب في الفلسفة والعلوم[1]، ومونتغمري وات، ودانتي الذي وضع النبي عليه الصلاة والسلام في طبقة سفلى من طبقات الجحيم.

وربما يُرْسِخ في ذهنك هذه الصورةَ ما تراه أحياناً من سلوك بعض الأفراد المسلمين أو بعض الجماعات المتطرفة، المجافي للتحضر والتأنق، المنافي للقيم الإنسانية والمثل العليا.. ولكن ألا ترى معي أنه من الظلم البين أن تحمِّل رسول الرحمة تبعة أخطائهم، لأنه لا يرضى عنها، ولأنها تنافي قيم الإسلام وتعاليمه؟!

قد لا تقتنع بهذا الكلام المباشر؛ لأن صورة الإسلام ورسوله- في أذهان كثير من الغربيين- ما تزال يكتنفها شيءٌ من الغموض والغبش وسوء الظن، غرستها في النفوس والعقول شبهات ألقاها أساطين الاستشراق ورواسب أخرى تاريخية وثقافية وعقدٌ نفسية موروثة.

---

(١) "التبشير والاستشراق"، محمد عزت إسماعيل الطهطاوي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١/ ١٤١١هـ- ١٩٩١م، ص ١٠٩.

وقد رأيت من واجبي إنساناً أولاً، ثم مسلماً محبّاً لمحمد ﷺ ثانياً، أن أقدِّم للقارئ الغربي تعريفاً سهلاً ميسرًا بمحمد، وأن أحاول تصحيح الصورة المغلوطة في الذهنية الغربية عنه، وأنا لن أحاول تجميل صورته؛ لأنها جميلة لا تحتاج إلى إضافة ولا إلى (ماكياج)!. وقد ترددت في البداية، ورن في أذني هاتفٌ يهزأ بجهدي، ويقول لي: أنت كمن يضيء شمعة في مهب ريح عاتية عاصفة في ظلمة ليلٍ بهيم، فهل تراها تصمد أو تبدد تلك العتمة! وماذا عساها أن تجدي هذه الوريقات؟ وهل تملك مواجهة هذا التيار الجارف من تشويه التاريخ وطمس الحقائق؟. لم أُعر هذه الوساوس بالاً، ولم تَفُتَّ في عضدي، فقد علمني رسول الإنسانية ﷺ ألا أزدريَ من المعروف شيئاً، وإن قل! وأن أزرع فسيلة وإن قامت الساعة!. ومما شجعني على المضي في كتابة هذه السطور ما أعرفه من ذكاء القارئ الغربي وما يتمتع به من الموضوعية والتجرد للحقيقة العلمية، ولكن أكاد أجزم أنه لن ينتفع أحدٌ من قراءته لهذه الرسالة المتواضعة، إذا دخل عليها وهو يحمل مقررات سابقة وأحكاماً مبرمة من موروثاته الثقافية والتاريخية، لأنها ستحول حتماً بينه وبين قلبه. والأجدر بالباحث عن الحق، أن يعرض المعلومات التي يقرؤها على عقله، ويختبرها كما يختبر الباحث في العلوم التجريبية المعطيات المادية لديه.

وهذه الرسالة لن تعرض عليك السيرة النبوية أو الشمائل المحمدية كلها.. والتي جمعت المحاسن طُراً حتى استحق ذلك الثناء الذي سمعته من الرب سبحانه، وصدَّرت رسالتي به، وهو قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[(١)]، فقد كان - بأبي هو وأمي - أرحمَ الناس وأعفَّ الناس، وأشجع الناس، وأحلم الناس وأكرم الناس، وأبرَّ الناس، وأنصح الناس للناس، وأكثرهم تواضعاً، وأوسعهم صدراً وأرفعهم قدرًا، وأشرفهم نفسًا، وأشدهم صبراً، وأقومهم بحق الله وتبليغ رسالته، وأخشاهم لله وأتقاهم له. وقد حفظ لنا تاريخ الرسول ﷺ وسيرته اعترافات شتى من أصدقائه وأعدائه بعلو همته، وسمو غايته، وجمال عفته، وعزة زهده. لن أتناول كل هذه الأخلاق العظيمة، فهذا يحتاج إلى مجلدات، وقد كُتِبَ فيها مجلدات كثيرة حقاً، ولكني اخترت واحدة من أعظم أخلاقه، ألا وهي رحمته ﷺ!. لماذا رحمته وليس سخاؤه أو شجاعته أو عدله؟ والجواب: لأنها أعظم أخلاقه، ولأنها روح رسالته وصبغتها التي صبغها الله بها، ولأنها تعطي هذه الرسالة أهم خصائصها ألا وهي عالميتها وخلودها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[(٢)].

---

(١) القلم: ٤ .
(٢) الأنبياء: ١٠٧ .



وإنَّ مما يدعو إلى العجب أن أَبرز مطاعن الغربيين في صفات رسول الله ﷺ الطعن في رحمته، وهي من أخص أخلاقه ﷺ وأعظمها إطلاقاً وألصقها بشخصيته، بل هي محمد نفسه، تجسدت فيه، فلا تفارقه في أوقاته وأحواله وظروفه حتى في حالات غضبه وغيظه، وهذا يدعوني إلى إفرادها بالحديث ذبًّا عن عرض رسول الله ﷺ، وتفنيداً للرسالة المَشينة التي حاولت تلك الرسوم الشوهاء توصيلها إلى عقول بعض الناس، وتعريفاً برحمة رسول الله ﷺ التي طعنت تلك الصور بها، وحاولت إخراجه للناس بصورة فظ غليظ، أو مجرم حرب متعطش للدماء! سبحانك اللهم هذا بهتانٌ عظيم!

وقبل أن أعرِّفك بالرحمة المهداة أُحب أن أنقل إليك صورة محمد ﷺ كما وصفها أصحابه، وهي صورة دقيقة كاملة التفاصيل تقريباً، حتى لكأنك تراه،! لتقارن بين الصور الشوهاء التي صورها بعض رسامي الكاريكاتير الدانماركيين، وأملتها عليهم خيالاتهم المريضة، وبين صورة محمد الأخاذة الوضيئة، راجياً لك المتعة والفائدة والهداية وتصحيح الصورة المقلوبة.









الفصـل الأول

تعريف عام برسـول الله ﷺ

المبحث الأول: صورة محمد ﷺ

المبحث الثاني: لمحة إلى سيرة الرسول ﷺ



الفصل الأول:

تعريفٌ عامٌّ برسول الله ﷺ

المبحث الأول: صورة محمد ﷺ

١- صورة النبيِّ ﷺ كأنك تراه[١]:

هو أزهر اللون، ليس بأبيض ولا آدَم، مستنير مشرق الوجه مشرب بياضه حمرة كأن الشمس تجري في وجهه، أسيَل الجبين[٢]، مسنون الخدين، وجهه بين الاستدارة والإسالة، إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، مليحٌ كأنما صيغ من فضة، لا أوضأ ولا أضوأ منه. وصفه جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضْحِيانٍ (مقمرة)، وعليه حُلَّة حمراء، فجعلتُ أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر، فإذا هو عندي أحسنُ من القمر»[٣]. عظيم الهامة، واسع الجبهة، أكحل العينين وليس بأكحل، أهدب الأشفار، أقنى الأنف أي طويل في وسطه بعض ارتفاع، مع دقة أرنبته (ما لانَ من الأنف)، واسع الفم جميلُه، من أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم، أشنب (مُحَدَّدُ

---

(١) هذه الصورة جمعها الباحث من جملة الأحاديث الواردة في صفاته الخَلقية ﷺ.

(٢) الأسيل: هو المستوي.

(٣) رواه الترمذي (٢٨١١).

الأَسْنانِ مع بَياض وبَريق) مفلج الأسنان بعيد ما بين الثنايا والرباعيات، إذا تكلم رُئِيَ كالنور يخرج من بين ثناياه. وكان في صوته صهل (بُحَّة). من أحسن عباد الله عنقًا، لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر، ما ظهر من عنقه يتلألأ في بياض الفضة وحمرة الذهب، وما غُيِّبَ في الثياب من عنقه فما تحتها فكأنه القمر ليلة البدر، بعيد ما بين المنكبين (عريض أعلى الظهر)، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، من لَبَّتِه إلى سُرَّتِه شعر يجري كالقضيب، أشْعَر الذراعين والمنكبين، كَتِفاه عريضان عظيمان، ضخم الكفين غير أنّهما ألين من الحرير، وأبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك. مرتفع الأخمصين[(١)]، أملس القدمين ليس في ظهورهما تكسر، شثن الكفين والقدمين[(٢)] ليس بالطويل البائن ولا بالقصير.

وكان ﷺ إذا مشى أسرع حتى لكأن الأرض تُطوى له، ليس فيه كسل، شديد الحركة، قوي الأعضاء غير مسترخ في المشي، وإذا التفت التفت معًا بجميع أجزائه، فلا يلوي عنقه يَمْنة أو يَسْرة، وعلى أعلى كتفه اليُسرىٰ خاتم النبوة، وهو خاتم أسود اللون، ويبلغ حجمه قدر بيضة الحمامة. رائحته أطيب من المسك، وعرقه كأنه اللؤلؤ، عن أنس بن مالك

(١) الأخمص من القدم ما بين صدرها وعقبها.
(٢) أي غليظ الأصابع والراحة.



خادمه قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فَقَال عندنا (أي نام ساعة القَيلولة)، فعَرِقَ، وجاءت أمي بقارورة فجعلت تَسلُتُ العَرَق، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: «يا أم سُلَيم ما هذا الذي تصنعين؟» قالت: عَرَقُكَ نجعله في طِيبنا، وهو أطيَب الطِّيب[١]. وكان ﷺ إذا صافحه الرجل وجد ريحه، وإذا وضع يده على رأس صبي فيظل يومه يُعرَف من بين الصبيان بريحه على رأسه. عن جابر بن عبدالله: أن النبيَّ ﷺ لم يَسلُك طريقًا فيتبعه أحدٌ إلا عرف أنه قد سَلَكه من طِيْب عَرَقه[٢].

ويمتاز ﷺ بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، أوتي جوامع الكلم، وخُص ببدائع الحكم، وعُلِّم ألسنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، لا يَنطِق إلا حقاً، ولا يقول إلا صدقاً، لم يجرِّب عليه قومه كذباً قط، قبل الرسالة ولا بعدها. وكان أعدل الناس، وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة ﷺ.

وكان كلامه ﷺ بَيِّناً فَصْلاً ظاهراً يحفظه من جَلَس إليه، وكان يُحَدِّث حديثاً لو عَدَّه العادُّ لأحصاه، ويعيد الكلمة

(١) رواه مسلم (٢٣٣١).
(٢) رواه الدارمي (٦٦).



ثلاثاً لِتُعقَل عنه، لا يحدِّث حديثاً إلا تبَسَّم، وكان من أضحك الناس وأطيَبهم نَفسًا، كثير التبسم، ولا يضحك إلا تَبَسُّماً، وكان إذا ضحك بانت أضراسه من غير أن يرفع صوته. طويل الصمت، لا يتكلم في غير حاجة، يُعرض عمن تكلم بغير جميل، من رآه هابه، ومن خالطه أحبه.

قال خارجة بن زيد: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه، وكان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يُعرض عمن تكلم بغير جميل، كان ضحكه تبسماً، وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم؛ توقيراً له واقتداء به.

وكان ﷺ حليماً لا يعجل، ولا يعاقب على السيئة بالسيئة، لم تعرف منه زَلَّة، ولم تحفظ عنه هَفْوَة، يعفو عند المقدرة، ويصبر على المكاره، لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى سفه الجاهل إلا حلماً، وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم فيئاً.

وكان ﷺ جواداً سمحاً سخياً ندياً، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ما سئل شيئاً قط فقال: لا. وكان أشجع الناس، لم يُحفظ عليه فَرَّة، وفر عنه الكُماة والأبطال غير مرة في أُحُد وحُنين، وهو ثابت لا يبرح، صابرٌ لا يتزحزح،

لم يولِّ دبره لعدوٍّ قط.

وكان ﷺ أشد حياء من العذراء في خِدْرها، وإذا كره شيئاً عُرف في وجهه. وكان لا يثبت نظره في وجه أحد، يخفض طرفه، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلُّ نظره الملاحظة، لا يَجْبَهُ أحداً بما يكره حياء وكرم نفس، وكان لا يسمي رجلاً بُلِّغ عنه شيئاً يكرهه، بل يبهم، ويقول: «ما بال الرجل أو ما بال أقوام؟».

وكان ﷺ أشد الناس تواضعاً، يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويعمل بيده، و يَفْلِي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، بعيداً عن الكبر، يمنع الناس عن القيام له كما يقومون للملوك، وكان يعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجلس في أصحابه كأحدهم، وكان - بأبي هو وأمي - لا يدع أحدًا يمشي خلفه، ولا يترفع على غيره ولو عبده أو أمته في مأكل ولا ملبس، ويخدم من خَدَمَه، ولم يقل لخادمه أفٍّ قط، وكان يحب المساكين ويجالسهم، ويشهد جنائزهم، ولا يَحْقر فقيراً لفقره، ويدعو فيقول: «اللهم أحيني مِسْكيناً، وأمتني مِسْكيناً، واحْشُرني في زُمرَة المساكين»[١].

(١) رواه الترمذي (٢٣٥٢) من حديث أنس، وصححه الألباني.



وعن خَبَّاب قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعُيَينة ابن حصن الفزاري فوجدوا رسولَ الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حَقَروهم فأتوه فخَلَوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأَعبُد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فَرَغْنا فاقْعُد معهم إن شئت. قال: «نعم». قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً قال: فدعا بصحيفة ودعا علياً ليكتب - ونحن قعود في ناحية - فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[1]، فألقى رسول الله ﷺ الصحيفةَ من يده ثم دعانا، فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وهو يقول: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾[2].

وكان ﷺ أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأعظمهم شفقة ورأفة ورحمة بالناس، أحسن الناس عشرة وأدباً، وأبسط الناس خلقاً، وأبعد الناس من سوء الأخلاق.

---

(١) الأنعام: ٥٢.

(٢) "صحيح السيرة النبوية"، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، ط١ - ص ٢٢٢. والحديث رواه ابن ماجه (٤١٢٧).

وقالت في وصفه أم المؤمنين عائشة: لم يكن فاحشاً، ولا متفحِّشاً، ولا صخَّابا في الأسواق، ولا يَجْزي بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويصفح[(١)].

وصفه هند بن أبي هالة فيما يرويه عنه الحسن بن علي رضي الله عنهما[(٢)] فقال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلم بجوامع الكلم، فصلاً، لا فضول فيه ولا تقصير، دمثاً ليس بالجافي ولا بالمهين، يعظم النعمة وإن دقت، لايذم شيئاً، ولم يكن يذم ذَواقاً - ما يُطعَم - ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها سماحة، وإذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جُل ضحكه التبسم، ويفتَرُّ عن مثل حب الغمام.

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه، يؤلف أصحابه ولا

---

(١) "سنن الترمذي" (٢٠١٦)، و"مسند أحمد" (٢٦١٣٣). وانظر: "الرحيق المختوم"، صفي الرحمن المباركفوري، دار ابن حزم، بيروت، ط١/ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص ٤٧٤ (الصفات والأخلاق).

(٢) رواه الطبراني في "المعجم الكبير" ٢٢/ (٤١٤)، والبيهقي في "دلائل النبوة" ١/ ٢٨٦.

يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بِشْرَه.

يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسِّن الحسن ويصوبه، ويقبِّح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر، غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره. الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يُوطِنُ الأماكن، إذا انتهىٰ إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجة صابَرَه حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردَّه إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناسَ بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق متقاربين، يتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرَم(١)، يتعاطفون بالتقوى، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

(١) لا تُؤْبَنُ فيه الحُرَم: أي لا تُذكر فيه عيوبُ الناس.



كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صَخَّاب، ولا فحَّاش، ولا عتَّاب، ولا مدَّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه. قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحداً، ولا يعيِّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه. إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، يقول: «إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه»، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ.

وعلى الجملة، فقد كان النبي ﷺ كامل الوصف، منقطع النظير، وهذا سبب نجاحه في دعوته وسرُّ اجتماع القلوب عليه.

وهذه الخلال والخصال التي ذكرتها إن هي إلا غيضٌ من فيض، وقطرة من بحر، والمقام لا يسمح بالتفصيل، وإنما أردت التمهيد للبحث فحسب.





٢- اسمه ونسبه ﷺ:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ويرجع نسبه إلى (عدنان) من ولد إسماعيل الذبيح ابن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام.

وهو خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، كشهادة أبي سفيان، بين يدي ملك الروم هِرَقْل، في قصة شائقة، تعدُّ من دلائل نبوته ﷺ[(١)].

ولرسول الله محمد عدة أسماء، قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي (أي يُحشر الناس إثر بعثه)، وأنا العاقب»[(٢)] والعاقب الذي ليس بعده نبي.

ومحمد أشهر الأسماء، وبه سمِّي في التوراة صريحاً بما يوافق عليه كل عالم من مؤمني أهل الكتاب[(٣)]، ومن أسمائه أحمد وهو الاسم الذي سماه به المسيح عليه السلام.

---

(١) وقد رواها البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس.

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٣٣٩)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم.

(٣) اقرأ في "السيرة": إسلام حبر اليهود عبد الله بن سلام.

و(محمد) سمي به في التوراة لكثرة الخصال المحمودة التي وصف بها هو ودينه وأمته فيها، وفي معاجم اللغة المُحَمَّدُ: الذي كثُرت خصاله الحميدة؛ وما سُمِّي الرسول محمدًا إلا لأنه محمدٌ أي إن اسمه هو صفته، فطابق الاسم المسمَّى. وهو اسم لا تكاد العرب تعرفه؟! وكان المشركون يشتمونه، ويسمونه مُذمَّماً! على نقيض معنى اسمه، على نحو مشابه لما فعلته بعض الصحف الأوربية في وقتنا الحاضر.. ولكن الرسول الحليم لم يكن ليضيق صدره، بل يجيب ببراعته اللغوية وحُنْكته السياسية قائلاً لأصحابه: «ألا تَعْجبون كيف يَصرفُ الله عنِّي شتمَ قريش، ولعنَهُم؟ يشتمون مُذمَّمًا، ويلعنون مُذمَّمًا، وأنا محمد!»[١].

ومعنى (يصرف الله عني) أي: يصرفُ لعنَهُم وشتمَهُم فلا يصيبني، لأنهم يلعنون ويشتمون غيري الذي يسمى مذمماً، في حين اسمي محمد. وكان كفار قريش لشدة كراهتهم له ﷺ لا يسمونه باسمه الدال على المدح، فيعدلون إلى ضده فيقولون: مذمم، وهو ليس اسمه ولا يُعرفُ به، فكان الذي يقع منهم مصروفاً إلى غيره بالبداهة، فيحصل ضد قصدهم، ويرد الله تعالى كيدهم في نحرهم، ليموتوا بغيظهم. ولكن

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠) من حديث أبي هريرة.



ينبغي الإشارة إلى أن نعت قريشٍ محمداً بمُذَمَّم إنما أتى بعد الرسالة والخصومة فيها، وكان قبلها يدعى عندهم (الصادق الأمين).

ألا تتفق معي أن دفاع محمد ﷺ عن نفسه كان هادئاً جداً بَيد أنه مفحمٌ للخصم، يكاد يقتله غيظاً وحنقاً، ولو قُدِّرَ لرسول الله ﷺ أن يعيش إلى أيامنا؛ واطلع على تلك الصور سيئة الذكر لأجاب بمثله!.

والشيء بالشيء يذكر، فقد ذكَّرني دفاع رسول الله ﷺ عن نفسه بما روته لنا حبيبته المبرَّأة عائشة قالت: استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ عليكم! (والسَّامُ: الموت) قالت عائشة غاضبةً: بل عليكم السَّامُ واللعنة. فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله يحبُّ الرفقَ في الأمر كُلِّه». قالت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «قد قلتُ: وعليكم»[1]. وهذا الرفق منه من تجليات رحمته ﷺ ومن دلائل نبوته!

وفي غزوة أُحد أشرفَ أبو سفيان قائد جيش المشركين في زَهْو وغرور إثر نصر اختطفه من المسلمين على حين غِرة، فقال: أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ:

(١) متفق عليه، البخاري (٥٦٧٨)، ومسلم (٢١٦٥).

«لا تجيبوه!» فقال: أفي القوم ابن أبي قُحافة؟ فقال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إنَّ هؤلاء قُتِلوا فلوا كانوا أحياءً لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يسوءُك! فقال أبو سفيان: اُعلُ هُبل!. فقال النبي: «أجيبوه!» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجَلّ». فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال النبي: «أجيبوه!» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سِجال، وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني![١].

هكذا كان رسول الهدى ﷺ يدير الحرب الإعلامية بعفةٍ وأدبٍ، واحترامٍ وصدقٍ، وهدوءٍ واعتدالٍ، دون إسفافٍ في الكلام أو فجورٍ في الخصومة، أو خنوعٍ للتهمة أو رضىً بالدون!.





(١) رواه البخاري (٢٨٧٤) من حديث البراء بن عازب.

٣- شبهةٌ والردُّ عليها:

قد تعترض وتقول: ولكن ردة فعل أتباعه على الإساءة إليه هذا الأوان كانت غاضبة جداً، وبعضها بلغ حد العنف والترويع؟.

أن تغضب أمة أسيء إليها فهذا من حقها، وبخاصة إذا كانت الإساءة إلى أعظم حرماتها وأعز من تحب: رسول الله ﷺ، وهو أحب إليها من الوالد والولد!. عندما قدَّم المشركون الصحابي زيد بن الدِّثْنَة؛ ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قُدم ليُقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وأني جالس في أهلي. قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمداً!![١].

ثمَّ هل تريدون منا أن نغمض أعيننا، ونصمَّ آذاننا، ونلجم ألسنتنا، وكأن شيئاً لم يحدث؟!.. وأنَّى لإنسانٍ مكرَّم فضلاً عن مؤمن غيور يسمع ويرى حبيبه - الرحمة المهداة للعالمين من الرحمن الرحيم - يُستهزَأُ به، ويُسخرُ منه بالكلمة المقروءة والمسموعة وبالصورة - والكاريكاتير - ثم

(١) "سيرة ابن هشام" ٤/ ١٢٥.

يدفن رأسه، ويؤثر الصمت!؟ وهل يوقف الصمت عدواناً، أم يغري بالتمادي والتطاول؟ وماذا يبقى للأمة من كرامة يوم يُنال من مقام نبيها وإمامها، ويُتَطاول عليه بهذه الصورة الوقحة السافرة، ثم لا يُنتصَرُ له، ولا يُذاد عن حياضه؟!. أينتصر الوثنيون وعبَّاد الحجر والبقر لرموزهم ومقدساتهم، فتقوم الدنيا ولا تقعد لتمثال بوذا مثلاً في أيام طالبان، أو لصورة له أيضاً امتهنت وصوِّرت على لباس سباحة في تايلند - وهذا حقهم، وحق كلِّ أمة أن تذود عن مقدساتها، وتتصدى لحملة الكراهية والاحتقار التي تشنها بعض بؤر العنصرية الآسنة - علىٰ حين يرفع بعضهم عقيرته ينتقد المسلمين، ويطالبهم بالعقلانية وعدم الانجرار وراء العاطفة!

لن نبادل السب والإهانة والاستهزاء بمثله، لأنه ليس من خلقنا، وديننا ينهانا عنه، ثم إننا نحن المسلمين نُجل الرسل جميعاً، ونوقرهم، ونصدقهم، و﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[1]. ونحن إذ نغضب لرسول الله ﷺ فإننا نغضب لإبراهيم وموسى وزكريا ويحيى وعيسى؛ لأن الإهانة لمحمد إهانة لجميع إخوانه، فالأنبياء إخوة لعَلَّات، أبوهم واحدٌ، وأمهاتهم شتى كما جاء على لسان رسول الله ﷺ الذي

(١) البقرة: ٢٨٥.



يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد عَلَّات، ليس بيني وبينه نبي»[١]. أي أنا أخَصُّ الناس بعيسى وأقربهم إليه، لأنه بشَّر به[٢]، ولأنه لا نبي بينهما، فكأنهما في زمن واحد. (وأولاد عَلَّات): هم الإخوة لأبٍ واحدٍ من أمهات شتىٰ، والمعنى: أن شرائعهم متفقة من حيث الأصول، و(دينهم واحد) هو دين التوحيد، وإن اختلفت من حيث الفروع، حسب الزمن، وحسب العموم والخصوص.

ونحن إذ نغضب لرسولنا ﷺ، فإننا لا ندعو إلى فتنة، ولا نحرِّض على ترويع، ولكننا - في الوقت ذاته - لا نرضى أن تمر واقعة بهذا الخطر دونما حساب ولا عقاب للأيدي الآثمة التي اقترفت هذه الجريمة، بيد أننا ندعو إلى أن تكون ردة الفعل على هذا الحادث من قبل المسلمين مدروسة وهادئة، وأن توظف توظيفًا إيجابيًّا من أجل إعادة تصحيح علاقة الإنسانية - ولا أقول المسلمين وحدهم - برسولها الذي بعثه الله رحمة للعالمين، بحيث تصير طريقته الحميدة وسيرته العطرة محور اهتمامها ومنهاج حياتها، لتطهِّر نفسها من أوحال الحضارة المادية المعاصرة، ولا أقصد التقنية فهي

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٥٨)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر: "إظهار الحق" رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ٤٢٢.

من حسناتها، لو سُخِّرت وسيِّرت في وجهتها الصحيحة، وليس عند المسلمين مشكلة معها أو صراع مع العلم، مثل الصراع الذي وقع بين الكنيسة والعلم، وعانت أوربة بسببه حِقَبًا طويلة. فطلب العلم الدنيوي في ديننا عبادة وفريضة، ولم يقل الله قط أن علم الدنيا غباء، ولا أريد أن أهدم حكمة الحكماء، وأحطم عقل العقلاء.. كما زعم بولس الرسول. ولم تحل اللعنة على من يقول بكروية الأرض أو يربط بين الظواهر الطبيعية وقانون السببية. ولم يسجن في ديار الإسلام عالم أو يحرق بالنار بسبب آرائه ونتائجه العلمية، ولم نحرق كتب العلوم والفلسفة مثلما أحرق أساقفة إسبانيا كتباً تجاوز عددها المليون وخمس مئة ألف كتاب من ثمار حضارة وثقافة عاشت ثمانية قرون(١). كلُّ ذلك لم يقع في بلاد الإسلام ولكنه للأسف وقع في أوربة(٢).

أجدني قد استطردت، وأعود لأقول إنه ما ينبغي لوسائل الإعلام وتقنيات التأثير أن تخدع حواسنا، وتضلل عقولنا، وتمسخ فطرتنا التي فطرنا الله عليها، وتميل بنا عن الجادة.



---

(١) "شمس الله تسطع على الغرب" زيغريد هونكه، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٤٥٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧٤-٢٧٨.

المبحث الثاني: لمحة إلى سيرة الرسول ﷺ

ليس غرضي من البحث عرض السيرة النبوية، فالموضوع الذي يتناوله بحثي هو «محمدٌ رحمةٌ للعالمين»، ولكن رأيت أنه لا بد من التمهيد له بنبذة من سيرته وعرض الخطوط العريضة في حياته، إذ كيف أتكلم علىٰ صفةٍ ما والقارئ لا يعرف الموصوف أو يجهل سيرة حياته؟.

١- ولادته ورضاعته وحضانته ﷺ:

ولد ﷺ في مكة، عام الفيل الذي نصر الله فيه بيته على عدوه من الحبشة، بقيادة أبرهة الذي أراد هدم الكعبة، نصرًا لا صنع للبشر فيه، إرهاصًا وتقدمة للنبي ﷺ الذي ولد في مكة ونبت فيها، وتعظيماً للبيت الحرام.

وفي يوم سابعه ختنه جده عبد المطلب، وصنع له مأدبة، وسماه محمداً، وهو اسم لا تكاد العرب تعرفه، وأرضعته ثُوَيْبَة مولاة أبي لهب أياماً، ثم أرضعته حَليمة السعدية، وحضنته أمه آمنة بنت وَهْب، والفاضلة الجليلة أم أيمن بركة الحبشية. ولا يُلتفَت إلى الروايات الواهية التي تزعم أنه ولد مختوناً، بل خُتن على عادة العرب، وكانت ولادته عادية كسائر البشر، غير أن بعض الأخباريين والقُصَّاص أحاطوها بالخوارق، وبالغوا فيها، يقصدون رفع منزلته، فأساؤوا؛

لأن مقامه عالٍ رفيع الدرجات، ولا يحتاج إلى حشو السيرة بالأوهام والمبالغات، أو لعلهم أرادوا بذلك أن يضاهوا بولادته ولادة سيدنا المسيح عليه السلام، وغاب عنهم أن رسول الله لم يبعث بالخوارق ولكنه بعث برسالةٍ تخاطب العقل الإنساني، وتتحداه، وتقدم مفهوماً جديداً للإعجاز، افتقرت إليه الرسالات السماوية السابقة بسبب تغير الزمان وتطور بني الإنسان.

ولد ﷺ يتيم الأب، ثم ماتت أمه ولمَّا يستكمل إذ ذاك سبع سنين، فأوصد الباب في وجه الذين يفترون الكذب، إذ قد يزين لهم الشيطان زخرف القول بأن محمداً زَرْع أبويه وثمرة تربيةٍ وتنمية أُسريَّة!. ثم كفله جده عبد المطلب، وتوفي ولرسول الله ﷺ نحو ثماني سنين، ثم كفله عمه أبو طالب واستمرت كفالته له، فلمَّا بلغ ثنتي عشرة سنة خرج به إلى الشام حيث رآه بَحيرا[1] الراهب، وبشَّر عمه بأنه سيكون لابن أخيه شأن عظيم (أي النبوة)، وأمره ألا يَقْدَمَ به إلى الشام خوفًا عليه من يهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة!. وقد استغلَّ بعض المستشرقين هذه الزيارة الخاطفة لبُصْرى، ليزعم أن محمداً ابن اثني عشر ربيعاً قد أخذ عن

(١) بَحيرا: لقب للراهب النسطوري سرجيوس، من قبيلة عبد القيس، وهي كلمة عربية آرامية تعني (المختار)، و(أل) التعريف في الآرامية هي ألف ممدودة تلحق آخر الكلمة.

بَحيرا الراهب علم الكتاب الذي عنده، وبنى عليه دعوى النبوة! ولكنَّ آيات القرآن كانت تتنزل على محمدٍ منجَّمةً بحسب الوقائع والأحداث المستجدة، فهل أحاط بها بَحيرا علماً؟! وهل أُخبر بالغار وببدرٍ وأحدٍ وحادثة الإفك وغيرها من الوقائع التي نزل القرآن بشأنها؟. وكان من الإنصاف وقد بَنَوا على واقعة لقائه ببحيرا أن يأخذوا بكل تفاصيلها، وفيها البِشارة بنبوة محمد والإقرار بها، فلماذا يتقوَّلون عليه بأنه استفاد دعوى النبوة من راهب بُصْرى، ويغمضون أعينهم عما ورد في الواقعة التاريخية من بشارة الراهب لعمه!؟.



٢- شبابه ومشاركته ﷺ قومه في معاليهم:

ولما بلغ محمد ﷺ خمسًا وعشرين سنة خرج إلى الشام في تجارة فوصل إلى "بُصْرى"، وهي أقصى ما وطئته قدماه من أرض الشام. ثم رجع؛ ليتزوج عقيب رجوعه خديجة بنت خويلد بنت الأربعين، وهي التي خطبته لِما عرفت من صدقه وأمانته وبركته في رحلته التجارية، وكان قد خطبها أكابر قومها فأبت، وهي أول امرأة تزوجها، ولم ينكح عليها غيرها حتى ماتت، وأحبها حباً عظيماً، وكان وفيًّا لها في حياتها وبعد موتها.

وحُبِّبَ إليه قبل بعثته الخلوة والتعبد لربه، وكان يخلو بـ(غار حِراء)، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، وبُغِّضت إليه الأوثان ودين قومه، فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك، وهاتان أمارتان من أمارات النبوة: الخلوة وبغض الأوثان، فتدبر!

وقد اجتنب محمد ما كان عليه قومه من رذائل الجاهلية وأوضارها، فلم يغمس يده في شيءٍ منها، بل أسهم في حِلْف الفُضول الذي عقد لنصرة المظلوم، وحرب الفِجار، وبناء الكعبة، ونحو ذلك من مآثرهم.

فلما كمل له أربعون سنة أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى الناس كافة: أبيضهم وأسودهم عربيهم وأعجميهم، منذ اليوم الأول من دعوته، ولم يتطور خطابه الدعوي - كما يحلو لبعضهم أن يزعم -، تمشياً مع ظروف دعوته ومدى نجاحها، أي أنه خصَّ به قومه أولاً، ثم لمَّا اتسعت دولته كَبُرَت طموحاته، وصبغ دعوته بالصبغة العالمية كما يدَّعون!

وكان مبعثه ﷺ يوم الاثنين لثمان مضين من ربيع الأول، على قول الأكثرين، سنة إحدى وأربعين من عام الفيل.





٣- بعثته وأول ما نزل عليه ﷺ:

بعثه الله على رأس أربعين وهي سن الكمال، وكان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا الصادقة، واستمر ذلك ستة أشهر، ثم أكرمه الله تعالى بالنبوة، فجاءه الملك وهو في خلوته بغار حراء، فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[1]، فرجع إلى أهله خائفاً، يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة بنت خويلد. فقال: «زَمِّلوني، زَمِّلوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع. فقال لخديجة: - وأخبرها خبر الغار - «لقد خَشيتُ على نفسي!». فقالت خديجة: كلا والله ما يُخْزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَقْري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق!. وانطلقت به خديجة حتى أتت به ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، ويكتب من الإنجيل بالعبرانية، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله به على موسى، يا ليتني فيها جَذَع، ليتني أكون حياً إذ يُخرجك

(١) العلق: ١- ٥.

قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أومُخرجيَّ هم؟». قال: نعم، لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»[(١)]. وأسلم ورقة، ليسجِّل التاريخ أن أول رجل يصدِّقُ محمداً ويعتنق دينه هو عالمٌ نصراني من أهل الكتاب، وهذا شاهدٌ ثانٍ بعد بَحيرا. ثم لم يَنْشَب ورقة أن توفي، ورآه النبي ﷺ في المنام في هيئة حسنة. ولا ريب أن أهل الكتاب أولى بمحمد ﷺ من سائر الناس، لأنهم أهل دين سماوي، وكانوا يعرفون محمداً بأوصافه أكثر مما يعرفون أبناءهم، وكان اليهود ينتظرونه ويستفتحون به على خصومهم، فلما خرج من العرب كفروا به عصبية وحسداً من عند أنفسهم.



٤- الأوائل:

ثم حمي الوحي، وأمر الله رسوله ﷺ بالدعوة، فدعا قومه إلى الإسلام، فحاز قَصَبَ السبق صديقه ووزيره أبو بكر، وزوجته خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب وكان ابن ثماني سنين، يعيش في كنف رسول الله ﷺ وكفالته.

(١) متفق عليه، البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة.



وكان نواة الإسلام: حرٌّ وعبدٌ وامرأة وفتًى!، ومنهم انبثق الدين، وسرى في الناس، وعم نوره في البقاع. أما العبد الذي بادر إلى الإسلام فزيد بن حارثة حِبُّ رسول ﷺ، وكان غلاماً لخديجة، وهبته لرسول الله ﷺ لمَّا تزوجها. وتعرَّفه أهله، فأبى أن يرجع معهم، وآثر رسول الله ﷺ عليهم.



٥- تعذيب المستضعفين:

ودخل الناس في دين الله واحداً بعد واحدٍ، وقريش لا تنكر ذلك، حتى بادأهم بعيب دينهم وأصنامهم وأنها لا تضر ولا تنفع. فحينئذ ناصبوه العداوة.. فحمى الله رسوله ﷺ بعمه أبي طالب، لأنه كان شريفا معظماً في قومه. وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه، لما في ذلك من المصالح التي تبدو لمن تأملها.

وأما أصحابه فمن كان له عشيرة تحميه امتنع بعشيرته، وسائرهم صبَّ عليهم المشركون العذاب صبّاً، وفتنوهم عن دينهم فتوناً.. منهم عمار بن ياسر وأبوه وأمه سُمية، الذين عُذِّبوا في الله عذاباً شديداً، حتى قضى ياسر نحبه، ومرَّ أبو جهل بسُمية - أم عمار- وهي تعذَّب، فطعنها بحربة في

فرجها فقتلها! ليسجل التاريخ أن أول شهيدٍ في الإسلام امرأة!. وكان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بهم - وهم يعذَّبون في الرَّمْضاء - يسمع أنينهم، فيقول: «صبراً آلَ ياسر، فإن موعدكم الجنة»![1]. لم يَعدْهم ويمنيهم بالسعة والدولة والجاه والمناصب.. بل وعدهم الجنة، وبمثله وعد أصحاب العقبة فيما بعد، ولم يعهد إلى أحد بشيء من متاع الدنيا ومناصبها - كما يفعل عادة أصحاب المطامع وزعماء الإصلاح والثورات - فهل هذا وعد ملك أو نبي؟. رويَ أنه ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب!. ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك في أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر لله يضعه حيث يشاء!». فقال له: أفنُهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك، فأبَوا عليه[2].

(١) "البداية والنهاية" ٣/ ٥٩، فصل تعذيب قريش للمسلمين لاتباعهم النبي عليه الصلاة والسلام. والحديث رواه أبو نعيم في "الحلية" ١/ ٤٠ من حديث عثمان بن عفان.

(٢) "البداية والنهاية" ٣/ ١٣٩، فصل في عرض رسول الله ﷺ نفسه الكريمة على أحياء العرب. نقلاً عن ابن إسحاق.

«الأمر لله يضعه حيث يشاء!»: عبارة قالها محمدٌ في أصعب أيامه، فلو كان محمدٌ مثل غيره من أصحاب المطامع والطموحات لأعطى بني عامر بن صعصعة ما يطلبون، ولأغرقهم بالوعود ومنَّاهم بالأماني، ليصل إلى مآربه، كمرشحي الانتخابات الذين يغرقون ناخبيهم بالوعود التي يسيل لها لعابهم، ويستثيرون غرائزهم ومطامعهم بالأماني الكذَّابة والأحلام الخلَّابة. لكنه محمد رسول الله حقاً وصدقاً، يقول بتواضعٍ وصراحة: ليس له من الأمر شيء، فالأمر لله يضعه حيثٌ يشاء! أين علماء التحليل النفسي، ليتدارسوا هذه الدلائل وأسرارها ومقاصدها، وليعلموا أن هذا الرجل لا ينطق عن الهوى!.



٦- الهجرة إلى الحبشة:

واشتد أذى المشركين على من أسلم، وفُتِنَ منهم من فتن، حتى ليقولون لأحدهم: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم! وحتى إن الجُعَل ليمرُّ بهم فيقولون: وهذا إلهك من دون الله، فيقول: نعم[1].

(١) "السيرة النبوية" لابن هشام ٢/ ١٦٣، ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة - فتنة المسلمين.

فلما اشتد البلاء، أَذِن الله سبحانه لهم بالهجرة الأولى إلى أرض الحبشة؛ لأن أهلها نصارى أهلُ كتاب، وفيها ملك عادل لا يُظلَم الناس عنده!. فأقام المهاجرون عند النَّجاشي على أحسن حال، فبلغ ذلك قريشاً، فأرسلوا وفداً ليكيدوهم عند النجاشي، فرجع الوفد بالخيبة والخسران(١). وظلَّ المهاجرون عند النجاشي ينشر عليهم ظله وحمايته حتى رجعوا إلى المدينة المنورة سنة سبع للهجرة.



٧- حصار الشِّعب وما بعده:

اشتد أذى المشركين لرسول الله ﷺ، فحصروه وأهل بيته في شِعب أبي طالب ثلاث سنين، حتى بلغ بهم الجهد، وسُمعت أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشِّعب، و لقد بدأ الحصار في هلال المحرَّم سنة سبع من البعثة، وخرج ﷺ من الحصار وله تسع وأربعون سنة، وبعد ذلك بأشهر مات عمه أبو طالب، ثم ماتت خديجة بعد ذلك بيسير.. فاشتد أذى الكفار له، فخرج إلى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو إلى الله تعالى، وأقام بها أياماً يدعو ثقيفاً، فلم يجيبوه

(١) "البداية والنهاية" ٣/ ٧٠، فصل تعذيب قريش للمسلمين لاتباعهم النبي عليه الصلاة والسلام، باب هجرة أصحاب رسول الله من مكة إلى أرض الحبشة.

وآذَوه وأخرجوه ورجموه بالحجارة حتى أدمَوا قدميه، وكان ذلك أشدَّ عليه من يوم أحد، فأرسل الله إليه مَلَك الجبال يستأذنه بإهلاك قومه، وأن يطبق عليهم جَبَلَي مكة إن أراد، لكن الرسول الرحيم ﷺ أجاب: «بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم من يعبدُ الله وحدَه، لا يُشْرك به شيئاً»(١).

الفَرَج بعد الشدَّة:

وفي طريقه لقي عدَّاساً النصراني من نينوى، فآمن به وصدَّقه، وهو شاهدٌ ثالثٌ من أهل الكتاب(٢).

وعندما رجع إلى مكة، لم يدخلها إلا في جوار المطعم ابن عَدي؛ اتقاء بطش قريش وفتكها، وبعدها أُسرِيَ به ﷺ إلى المسجد الأقصى، ثم عُرِج به إلى فوق السموات، للقاء ربه، ليطمئنَّ قلبه، فخاطبه ربه سبحانه، وفرض عليه الصلوات الخمس، وقيل كان ذلك مناماً، وهذا قولٌ لا يصح، فإنَّ محمداً لم يسرِ بقدرته أو بنفسه، وإنما أُسريَ به، وما ذلك على الله بعزيز.



(١) متفق عليه، البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة.

(٢) "البداية والنهاية" ٣/ ١٣٦، فصل في ذهابه ﷺ إلى أهل الطائف يدعوهم إلى دين الله.

٨- دعوة القبائل:

أقام ﷺ بمكة يدعو القبائل إلى الله تعالى، ويعرض نفسه عليهم في مواسم الحج، وأن يؤووه حتى يبلِّغ رسالة ربه ولهم الجنة ليس غير، فلم تستجب له قبيلة، فلما رأى بعضُ أهل يثرب النبي ﷺ يدعو الناس إلى الله، وتأملوا أحواله، وقد سمعوا عنه من يهود يثرب، قال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم أن هذا الذي توعدكم به اليهود، فلا يسبقونكم إليه. وكان اليهود ينتظرون مبعثه، وقدَّر الله بعد ذلك أن يكفر به اليهود حسداً من عند أنفسهم، لكن نفراً من خيارهم صدَّقوا بمحمدٍ واتبعوه بعد أن عرفوه بنعته الوارد في كتبهم، منهم عبد الله بن سلام، وقصة إسلامه في السيرة عجيبة فيها أمارات قوية على نبوة الرسول ﷺ.

البِشارة برسول الله ﷺ:

والبشارة برسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل ثابتة، وما يزال كثيرٌ من نصوص الكتاب المقدس المعاصر يحمل هذه البشارة بدلالة قاطعة صريحة، من مثل ما ورد في (سِفْر التثنية **٣٣: ٢-٣**): «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران»، «عشرة آلاف قديس معه»، «وعن يمينه نار الشريعة لهم فأحب الربُّ الشعب»،

«وحمى من ينتسبون إليه»[١].

وفاران: هي مسكن إسماعيل، كما تذكر التوراة نفسها في (سِفْر التكوين ٢١:٢١)، تقول: «وسكن - أي إسماعيل - في برية فاران».

والنصوص التي تبشر بمحمد في الكتاب المقدس كثيرة، أكتفي بالإشارة إليها لمن يود مراجعتها والنظر فيها[٢]، فمنها: (حبقوق ٣: ٣-٦) وفيها ذكر تيماء، (أشعياء ٢١: ١٣ - ١٧)، وفيه ذكر «وحي من بلاد العرب الوعرة» وفَناء مجد قيدار ومن نسله قريش، ووقَع ذلك في غزوة بدر. وبشارة أشعيا عن العاقر تجدها في (أشعياء فصل ٥٤)، و(غلاطية ٤: ٢٤ - ٢٧). والبشارة لموسى عليه السلام في (التثنية ١٨: ١٥ - ٢٠)، وتقول: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به...». وكذلك بشَّر به المسيح، ففي إنجيل (يوحنا ١٥: ٢٦): «فمتى جاء هو أي روح الحق، أرشدكم إلى الحق كله؛ لأنه لن يتكلم من عنده بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم

(١) انظر: "تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد ﷺ"، د. نصر الله عبدالرحمن أبو طالب، دار الوفاء، المنصورة، ط١/ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، ص ٣٠٤. و"إظهار الحق" ص ٤٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣١٥ وما بعدها.

بما سيحدث، سيمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم به»[(١)].

وما بشارة عيسى إلا محمد، قرأها رجلٌ عظيمٌ من أهل الكتاب، وعرف علامات النبي الأمي، فخرج يبحث عنه، ويتنقل بين المدن، حتى حطَّ رحاله في يثرب، فلقيه وعرفه وآمن به، وهو سلمان الفارسي الذي صار من كبار أصحابه.



٩- لقاء الأنصار والهجرة:

ولقي وفدُ أهل يثرب رسولَ الله ﷺ وبايعوه ووعدوه أن ينصروه ويمنعوه حتى يبلِّغ رسالة ربه، ثم هاجر إليهم مع أصحابه. وهناك في يثرب التي سمَّاها (المدينة) جمع الله عليه أهلها من قبيلتي الأوس والخزرج، أخوةً متحابين بعد عداوة وقعت بينهم بسبب قتيل، فلبثت بينهم الحرب مئة وعشرين سنة، إلى أن أطفأها الله بالإسلام، وألف بينهم برسول الله ﷺ وذلك قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾[(٢)].

لكن المشركين ازداد حَنَقُهم على الإسلام وأهله، فشنوا على رسول الله ﷺ سلسلة من الحروب المتتابعة، فاضطرَّ المسلمون إلى الدفاع عن أنفسهم، وأذِن الله لهم بالقتال

(١) المرجع السابق، ص٣٥٥.
(٢) آل عمران: ١٠٣.



بأنهم ظُلموا، بعد أن أُمروا بكف أيديهم.



١٠- رسالة عالمية ودعوة عامة:

واستطاع رسول الله بعد مدة أن ينتزع من قريش صلحاً سمِّي صلح الحُدَيبية، ليتفرغ للدعوة ونشر الرسالة، فبعث رسلاً من أصحابه سفراء، وحمَّلهم كتباً إلى الملوك، يدعوهم فيها إلى الإسلام، إذ أرسله الله للناس كافة ورحمة للعالمين: فبعث إلى قيصر ملك الروم، وكِسْرى ملك فارس، والنجاشِي ملك الحبشة، والمُقَوقِس ملك الإسكندرية، وجَيْفَر وعَيَّاد ابني الجُلَنْدىٰ الأزديين ملكي عُمان، وثُمامة بن أُثال وهَوْذَة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة، والمنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، والحارث بن أبي شَمِر الغساني ملك تخوم الشام، وجَبَلَة بن الأيهم الغساني، والحارث بن عبد كُلال الحِمْيَري ملك اليمن. واختلف جواب الملوك على كتب رسول الله ﷺ، فمنهم من آمن كالنجاشِي، ومنهم من رد رداً جميلاً كالمُقَوقِس وهِرَقْل، ومنهم من رد رداً قبيحاً مثل كِسْرى الذي مزَّق الكتاب، وبعضهم قتل السفير[1].



(١) "زاد المعاد" ١/ ١١٩، فصل في كتبه ورسله إلى الملوك.



١١- نجاح الدعوة وأثرها :

نجح رسول الله ﷺ في دعوته على نطاق واسع تتحير له العقول، فقد دانت لها الجزيرة العربية، وزالت الجاهلية بتقاليدها الفاسدة وأعرافها الباطلة وأوضاعها الجائرة وتصوراتها العليلة، حتى حُطمت الأصنام، وجلجل صوت الأذان يشق أجواء الفضاء ويملا الآفاق. وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة اللّه، وتحقق العدل والمساواة، وألغيت الطبقية، واندثرت العصبية الجاهلية، وإنما الناس كلهم عباد اللّه، إخوان متحابون، متمثلون لأحكامه، أذهب اللّه عنهم عُبِّيَّةَ الجاهلية ونخوتها وتعاظمها بالآباء، ولم يبق هناك فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب. وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة الإسلامية، والوحدة الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، واعتدلت القيم والمقاييس، وتغير وجه الأرض، وازدهرت في الجزيرة العربية نهضة مباركة، وحضارة زاهرة، وتألقت وازدانت.





١٢- حجة الوداع:

بعد أن تحقق إبلاغ الرسالة للناس كافة، واكتمل بناء المجتمع الإسلامي على أساس التوحيد، وشاء اللّه أن يُري رسوله ﷺ ثمار دعوته، التي عانى في سبيلها ثلاثة وعشرين عاماً حافلة بالجهد والجهاد والاجتهاد والبلاء والإيذاء، وأحس رسول الله ﷺ بدنوِّ أجله، قصد رسول الله ﷺ الحج، ليجتمع بالأمة الإسلامية، فيأخذوا منه أصول الدين وكليَّاته، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة، وبلَّغ الرسالة، ونصح الأمة.

وفي اليوم التاسع من ذي الحجة يوم عرفة، وقد اجتمع حوله مئة ألف وأربعة وأربعون ألفاً من الناس، قام فيهم خطيباً، وألقى خطبته الجامعة التي تضمنت أول إعلانٍ عامٍ لحقوق الإنسان عرفته البشرية، وأعلن فيها المساواة والعدل، وحرمة الدماء والأموال، وحقوق النساء، ووضع دماء الجاهلية وأموالها الربوية، وبدأ بربا عمه العباس، قال فيها[١]: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إن

(١) "السيرة النبوية"، ابن هشام ٦/٨، خطبة الوداع، و"البداية والنهاية" ٥/ ١٩٥، فصل خطبة النبي عليه الصلاة والسلام.

دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلَّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإنَّ كل ربًا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإنَّ ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله. وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإنَّ أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته هُذَيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية».

وجاء فيها أيضاً: «أما بعد: أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً..» إلخ. وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة، نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾(١)، ولما نزلت بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: أبكاني أنَّا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص. فقال: «صدقت»(٢). وأقام أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك ويعلِّم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمها.

(١) المائدة: ٣.
(٢) رواه ابن أبي شيبة في "المصنف" ٧/ (٣٤٤٠٨).



ولما قضى مناسكه حثَّ الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظًّا من الراحة، بل ليستأنف الكفاح، ويجهز جيشاً كبيراً في صفر سنة ١١هـ، أمَّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تُخُوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، يبغي بذلك إرهاب الروم، وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبن أحدٌ أن بطش الروم لا معقب له، وأن الدخول في الإسلام يجرُّ على أصحابه الحتوف فحسب. وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، وينتظمون في جيشه، حتى خرجوا ونزلوا الجُرْف، على فَرْسَخ من المدينة، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ ألزمتهم التريث، حتى يعرفوا ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يختار رسولَه، ويقبضه إليه، وأن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق.



١٣- مرضه وموته ﷺ:

روى ابن إسحاق: عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه». قالت: ثم قال: «وما ضرَّكِ لو متِّ قبلي، فقمتُ

عليك وكفنتكِ، وصلَّيتُ عليك ودفنتُكِ؟». قالت: قلت: والله لكأني بك، لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي، فأعرستَ فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسَّم رسول الله ﷺ(١). وتتامَّ به وجعه، وهو يدور على نسائه، حتى استعزَّ به وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه، فاستأذنهن في أن يمرَّض في بيتي، فأَذِنَّ له(٢).

ولمَّا كان يوم الاثنين الذي قبض فيه رسول الله ﷺ خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح، فرفع الستر، وفتح الباب، فقام على باب عائشة، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم؛ فرحاً به حين رأوه، فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم. وتبسَّم رسول الله ﷺ سروراً، لما رأى من هيئتهم في صلاتهم، وما رئي أحسن منه تلك الساعة. ثم رجع وانصرف الناس، وهم يرون أنه قد شفي. وخرج أبو بكر إلى أهله بـ(السُّنْح)(٣) بعد أن اطمأنَّ بحال رسول الله، غير أن النبي ﷺ لم يلبث أن توفي حين اشتد الضحى من ذلك اليوم.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٤٦٥)، وأحمد في "المسند" (٢٥٩٥٠).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٩٨)، ومسلم (٤١٨) / ٩١ .

(٣) موضعٌ قُربَ المدينة المنوَّرة، كان به مَسكَنٌ لأمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر "تاج العروس" للزَّبيدي (س ن ح) ٦/ ٤٨٧ .

واضطرب الناس إثر سماعهم خبر موته، فقام فيهم أبو بكر خطيباً، فحَمِدَ الله تعالى وأثنى عليه. ثم قال: «أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله تعالى، فإن الله حي لا يموت». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [(١)]. وكاد الناس بعد وفاته أن يختلفوا، ولكنَّ الله سلَّم، وجمع كلمتهم على أبي بكر الصديق، فبايعه الناس عبر انتخاب من الأمة، لا عهد للعرب به بل للعالم كله آنذاك، وخطب فيهم خُطبة الحكم، فحَمِدَ الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني. الصدق أمانة والكذب خيانة. والضعيف فيكم قويٌّ عندي، حتى أريحَ عليه حقه إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيفٌ حتى آخذَ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قومٌ الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل. ولا تشيع الفاحشة في قوم قطُّ إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا

---

(١) آل عمران: ١٤٤. والحديث رواه البخاري (٣٤٦٧) من حديث عائشة.

طاعة لي عليكم»[١]. واستمرَّ نظام الحكم شورى بين الناس طيلة الخلافة الراشدة، لينقلب بعد ذلك ملكًا عضوضًا وجَبرية جرَّت على الأمة الويلات، كما أخبر به ﷺ.

هذه نبذة يسيرة من سيرة النبيِّ محمد، رأيت أنه لا بدَّ منها بين يدي البحث، وأردت أن توطِّئ له، وتكون كالمقدمة، إذ ليس من الحكمة أن أحدثك عن شمائل محمد وخصائصه، وأنت تجهل سيرته جهلاً مطبقاً، أو لا تعرف عنه إلا النزر اليسير المشوَّش.



(١) "سيرة ابن هشام" ٦/ ٨٢.







الفصل الثاني

رحمة للعالمين

المبحث الأول: خصائص رحمته ﷺ

المبحث الثاني: من تجلِّيات الرحمة



الفصل الثاني:

رحمة للعالمين
(الرحمةُ المُهداة من ربِّ العالمينَ)

المبحث الأول: خصائص رحمته ﷺ

١- الرحمة صفة الربِّ سبحانه:

يحاول بعض المعاندين النيل من صفات الرب سبحانه، ويقولون: أنَّى لمحمدٍ أو للمسلمين عامة أن يتصفوا بالرحمة، وربهم الذي يعبدونه ويتوجهون إليه في صلاتهم يتصف بالقسوة والمكر والبطش والانتقام، وأسماؤه تدلُّ عليه: القهار، المتكبر، المهيمن..... إلخ. وحسبك أن تتخيل النار التي أعدها للكفار، وهم طبعاً غير المسلمين، وترى بعض صورها وأوصافها كما وردت في القرآن وعلى لسان محمد ﷺ من الزقوم والحميم والصديد والسلاسل والأغلال والسعير، وبخاصة في رحلة الإسراء والمعراج التي أطلعه ربه فيها على بعض عذاب أهلها مما تقشعر لهوله الأبدان وتشيب له الولدان!. لنقرأ معاً على سبيل المثال هذه الآيات: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ

مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾[1].

ولم يقتصر هذا العذاب الأليم على الآخرة، بل يعجِّل الرب عذابه وفتكه، ويُحلُّ غضبه وانتقامه على العصاة والمذنبين في الدنيا؛ بالخسف والمسخ والزلزلة والصاعقة والريح العقيم والطوفان الذي أباد سكان المعمورة إلا أهل السفينة!. ثمَّ يردف أصحاب هذه الشبهة قائلين: إذا كان ربُّ محمد - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - بهذه الصورة من القسوة والانتقام والبطش بأعدائه فلا يلام محمدٌ - حاشاه - في فظاظته وقسوته!؟

هذه الصورة التي ينقلها هؤلاء للرب سبحانه، ليست صورة صحيحة، فإن لله تسعةً وتسعين اسماً أو يزيد، يغلب عليها الأسماء التي تدلُّ على الرحمة والحنان والعفو والمغفرة والحب والكرم، من مثل: الرحمن، الرحيم، الغفار،

(١) الواقعة: ٤١ - ٥٦ .



الغفور، الودود، العفو، التواب، البَر، الكريم، الأكرم، الرؤوف، الحفيظ، اللطيف، الستير، الشافي، النصير، المولى، الرب.. إلى آخر هذه الأسماء الحسنى.. بَيد أن هناك أسماء أخرى لله سبحانه تظهر قدرته وعظمته وجلاله، لأنه سبحانه يتصف بالكمال، واتصافه بالرحمة فقط يغري بالشر، ويجرِّئ مرضى القلوب على التمادي في الضلال .

بل إن العبد نفسه إذا اتصف بالرحمة دون حزم، وبالرفق دون عزم، فإنه يعيبه ذلك. فإذا كان الكمال البشريُّ يقتضي اتصاف الإنسان بصفات القوة والشدة إلى جانب صفات الرحمة والرفق، فما بالك بالرب سبحانه؟. إن رحمةً من غير قوة، وعفواً من غير مقدرة، ضعفٌ مقيت. وإن ربًّا برًّا رحيمًا رحمة خالصة، لا قوة تحميها من استغلال مرضى القلوب، يقول لعباده: اصنعوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم! يغري عباده باقتراف الموبقات، ويحوِّلهم إلى شعوبٍ من عُتاة المجرمين!! أما ربنا سبحانه فإنه يتصف بصفات القوة والرحمة معاً، غير أن رحمته سبقت غضبه! كما وصف الله نفسه، وأمر رسوله بتبليغ الناس حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم، وعلم بربهم سبحانه، فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾[1].

(١) الحجر: ٤٩ - ٥٠ .

ولذلك نجد القرآن الكريم يستخدم في منهجه التربوي التعزيز بشِقَّيه: السلبي والإيجابي، فيَعْمِدُ إلى الإثارة والتشويق تارةً وإلى التخويف والتحذير أخرى، ويستعمل الترغيب والترهيب. غير أن الأصل في التربية الإسلامية هو التبشير والتيسير، وتقديم الرجاء على الخوف، وتحريم اليأس والقنوط من رحمة الله التي وسعت كل شيء. ففي الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا قضى الله الخلقَ كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»(١). وحتى تعرف سعة رحمة الله اقرأ ما رواه البخاري عن رسول الله ﷺ، يقول: «إن الله خلق الرحمةَ يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمةً، وأرسل في خلقه كلِّهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافرُ بكلِّ الذي عند الله من الرحمة لم يَيْئَس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكلِّ الذي عند الله من العذاب لم يأمَن من النار»(٢).

ومن مظاهر رحمته سبحانه مغفرته ذنوبَ عباده، وتجاوزه عن زَلَّاتهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أناساً من أهل الشرك، كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزَنَوا وأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن،

(١) متفق عليه، البخاري (٣٠٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري (٦١٠٤) من حديث أبي هريرة.



لو تخبرنا أن لِما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾[١]. ونزل: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾[٢]، وفي هذا المعنى حديث النزول، وفيه: «إن الله تعالى يُمهِل حتى إذا كان ثلثُ الليل الآخِر نزل إلى سماء الدنيا، فنادى: هل من مُستغفر؟ هل من تائب؟ هل من سائل؟ هل من داع؟ حتى ينفجر»[٣]. وقد مثَّل رسول الله رحمة ربه بمثال، روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سَبْيٌ، فإذا امرأةٌ من السبي قد تحلَّب ثديُها تبتغي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحةً ولدَها في النار؟». قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال: «لَلَّهُ أرحمُ بعباده من هذه بوَلَدها»[٤]. و(أرحم) أي أكثر رحمة،

---

(١) الفُرقان: ٦٨-٧٠. (٢) الزمر: ٥٣.

(٣) رواه مسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة، وأحمد في "المسند" (١١٤٠٤) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، واللفظ له.

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤).

ورحمته تعالى إحسانه لعباده، ودفعه النقمة والعذاب عنهم. وقد تخلَّق محمدٌ بخلق ربه مما يليق بالعبد وعلى قدره من الرحمة والرأفة والعفو، حتى امتدحه ربه بها وأثنى عليه فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾[1].



٢- الرحمة جوهر رسالته وشخصيته ﷺ، وليست صفة عارضة:

عجبتُ أشد العجب لتلك الصورة التي قدمت محمداً ﷺ إلى الناس كرجل مجرم شرير تلفُّ رأسه قنبلة مدمرة، وتتهمه بالإرهاب والتطرف والقسوة! وإن لم تكن هذه الشبهة الداحضة جديدة، ولا الأولى من نوعها، فالغارة على شخصية محمد ﷺ قديمة، لا تكاد تهدأ حتى تبدأ، ولا تنطفئ حتى تسعَّر!. لكن أليس من المفارقة أن يُطعن الرجل في أخص صفاته: رحمته التي غلبت غضبه، وصبغت حياته، وسبقت سائر صفاته الأخرى، دون إخلالٍ بالتوازن الذي تتمتع به شخصيته الآسرة ﷺ حتى قال - بأبي هو وأمي -: «إنما أنا رحمة»، وبهذه العبارة الوجيزة قدَّم محمدٌ نفسه

(١) التوبة: ١٢٨.

للناس؟. ومِن قبلُ بشَّر به أخوه عيسى، وأنه يأتي رحمة بعد غضب، ففي (برنابا ٧٢: ١٤-١٧): «في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله للعالم...وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم، وإني أُسرُّ بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجِّد الله، ويظهر صدقي». و لابد من الإشارة إلى أن هذا الإنجيل قد صرَّح باسم الرسول محمد مراراً، لكن الكنيسة لم تعترف به[1].

ويحقُّ لي أن أسأل: كيف يُنعت محمد بالقسوة والغلظة، وبالرحمة أُرسل، ومن أجلها بُعِث، فهي جوهر رسالته ومادتها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[2]؟، فرسالته ﷺ رحمة كلها، حتى الحزم والقوة والعدل والشجاعة التي بلغ فيها منتهاها، تتجلى فيها رحمته، فإليها كان يدعو وبها، فهي أسلوبه ومنهجه وسياسته، وهي مناط نجاحه وتوفيقه في دعوته، رحمة لم يكن يصطنعها ويتملق بها شعبه، بل فُطِر عليها، ولا أستطيع أن أقول إنها كانت بعضاً منه، لأن هذا التعبير فيه قصورٌ مخلٌّ، فقد كانت الرحمة تسري في أوصاله كالماء في العود الرطب، وكالروح في الجسد، ولهذا اجتمع عليه أصحابه،

(١) "تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد ﷺ" ص٣٦٣.
(٢) الأنبياء: ١٠٧.



وأحبوه حباً لم يُر مثله قط، ولم يُسمع بمثله قط، وكأني بك ترغب أن ترى بعض صور هذا الحب.



٣- رحمته سرُّ نجاحه ﷺ:

لقد كانت رقة الرسول محمد ﷺ ورحمته وشفقته من عوامل نجاحه التي فطره الله سبحانه عليها، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ (١). ورحمته ﷺ بعدٌ من أبعاد فطنته، حيث كانت شِباكاً لصيد القلوب والاستيلاء عليها، ومفتاحًا لمغاليق أقفال صدئة موصدة لا أمل بفتحها، ولا يعني هذا أنه كان يتصنع الرحمة، ويتخذها ذريعة للوصول إلى مآربه السياسية - كما أسلفت - بل كانت طبيعته وفطرته التي فطره الله عليها؛ وهذا من مظاهر حكمته سبحانه. والحكمة تعني وضع الشيء في موضعه، ولذلك خصَّ محمداً بهذا الفضل، واجتباه من بين سائر الناس بالرسالة الخاتمة، وبعثه رحمة للعالمين. وشتان ما بين رحمة خالصة فطرية إنسانية وأخرى تحركها الأغراض، وتقوم على المصالح، فإذا وصل صاحبها إلى مأربه اختفت مظاهر هذه الرحمة الصناعية، ليرجع ذاك

(١) آل عمران: ١٥٩.

الرحيم المزعوم إلى طبيعته الوحشية الغالبة من قسوة وفتك وغلظة وفظاظة.

٤- رحمة عامَّة:

كانت رحمة محمد ﷺ رحمة عامة شاملة للإنسانية كلها بجميع ألوانها وأطيافها وتنوُّعاتها، بل للوجود بأسره. إن رحمة المرء ولده ووالده وزوجه وقريبه رحمة فطرة، يستوي فيها جميع الخلق إلا من تحجَّر قلبه، لكن الرحمة التي يكلفنا بها الإسلام هي الرحمة بالعامة، بأهل الأرض كافة، ويجعلها شرط اكتمال الإيمان، فليس بمؤمنٍ من لا يرحم. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لن تؤمنوا حتى تراحَموا!» قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم! قال: «إنه ليس برحمةِ أحدكم صاحبَهُ، ولكن رحمة العامَّة»[(١)]. فهي رحمة للخلق كافة، وتشمل جميع الناس دون قيدٍ أو استثناء، بدليل حديث النبي ﷺ قال: «الرَّاحِمونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحمن، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّماءِ، والرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمن، مَنْ وَصَلَها وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطعها بَتَّتْه»[(٢)] فالرحمة بالخلق شرطٌ لتحصيل رحمة

---

(١) رواه الحاكم في "المستدرك" ٤/ ١٨٥، وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" ٨/ ١٨٧، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبدالله بن عَمرو. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الخالق، بحسب عبارة الحديث: (ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السّماءِ).

أخلاقه ﷺ إنسانية وليست عنصرية أو مصلحية، وأعيذك بالله - أخي القارئ - أن تحسب أن أخلاقه ﷺ كانت أخلاقاً ذرائعية نفعية، يتخذها سُلَّماً لتحصيل مطالبه وتحقيق رغائبه.. ثم إذا بلغ المرام نكث وغدر وعقَّ - حاشاه وصانه مولاه وحماه - ولم تكن أخلاقه خاصة بأصحابه أو بني قومه دون سواهم من سائر الناس، كأخلاق العنصريين الضيقة التي لا تستوعب إلا بني جنسهم أو دينهم، وتضيق عن سائر الملل والنحل، بل كانت أخلاقه إنسانية عامة، وسعت المسلم وغير المسلم، والكبير والصغير، والمرأة والرجل، والإنسان والحَيَوان والطير. إن الإسلام يَعُدُّ الناس جميعاً أسرة واحدة، الأسرة البشرية يَعُدُّها الإسلام أسرة تنتمي إلى ربٍّ واحد، وإلى أب واحد «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب». هكذا قال محمد رسول الله ﷺ، كما قال القرآن في خطابه العالمي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[1] وما أحسنَ تعبيرَ الشاعر:

(١) الحجرات: ١٣.



إذا كـان أَصْـلي مـن تُـرابٍ فـكُـلُّـهـا
بِـلادي وكُـلُّ الـعـالَـمـيـنَ أقـاربـي

ولم يكن هذا من قبيل الأخلاق الماسونية الخادعة التي اتخذت من (الإنسانية) وشعاراتها الزائفة المتمثلة في (الحرية والعدالة والمساواة) ستارًا لخداع الإنسان، وشَرَكًا لاستلاب عقله، والاستيلاء على مقدراته وتدمير مقوماته. ولم تكن شبيهة بالأخلاق التوراتية والتلمودية؛ لأن ما يرد في النصّ التوراتي من وصايا تدعو إلى المحبة والخير والعدالة فإنها وصايا عنصرية ضيقة تخصُّ اليهود فقط شعبَ الله المختار - كما ينعتون أنفسهم - أو أبناء الله وأحباءه، ولا يجوز أن تطبَّق على الأجانب والآخرين.

إن الرحمة الإنسانية التي كان الرسول ﷺ يمثلها، لم تكن من هذا النوع أبدًا، ويجب ألا تخلط به. اليهودي يحقُّ له أن يسرق الآخرين، وأن يزني بنسائهم، وأن يقرضهم بالرِّبا، ويشهد بالزور، ويسرق، ويشتهي النساء الأجنبيات، ويغدر، ويغتصب كل من هو غير يهودي فقط، لكنه لا يحقُّ له هذا مع اليهودي، لأن اليهوديَّ أخوه الودود، في حين الأجنبي عدوه اللدود. وهذا دون شك يعبِّر عن انعدام الرحمة الإنسانية عند اليهود على خلاف ديننا الإسلامي الذي يَزخَر بها. وإن الباحث في النصوص التوراتية يجدها تؤكد

هذه النزعة وتنسبها إلى (يهوه) حتى تأخذ صفة الشرعية والديمومة، ونقرأ فيها على سبيل المثال: «للأجنبي تقرض بربًا، ولكن لأخيك لا تقرض بربًا، لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها» (التثنية **٢٣: ٢٠**). «إذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. ولا تتسلَّط عليه بعنف وإلى آبائه يرجع. وأمّا عبيدك الذين يكونون لك، فمن الشعوب الذين حولكم منهم تقتنون عبيداً وإماءً، وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين في أرضكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم، الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك، تستعبدونهم إلى الدهر. وأمّا إخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلَّط إنسان على أخيه بعنف» (سِفْر اللاويين **٤٦: ٢٥**).

إن هذه النصوص المقدسةَ عندهم تغذي نزعة العنصرية والعزلة والتسلُّط والفوقية، وضرورة القسوة والانتقام واستعباد الشعوب والأمم، ومثل هذه النصوص لا تجدها في القرآن ولا في السنة، وما ورد من نصوصٍ تأمر بالشدة والغلظة مع الآخر، فهي واردة في سياق معين؛ لأن هذا الآخَر ليس سوى محارب معتدٍ على حقوق المسلمين وحرماتهم، أما أهل الذمة والمستأمنون والمعاهدون من

اليهود والنصارى فهؤلاء ينشر عليهم الإسلام ظلَّه وحمايته، ويكفل لهم جميع حقوقهم.. وحسبهم أن من آذاهم فقد آذى رسول الله نفسه!. هكذا أعلن نبي الرحمة والتسامح إذ قال: «ألا من ظلم معاهِدًا أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حَجيجُه (أي أنا الذي أخاصِمُه وأُحاجُّه) يوم القيامة»[١]. (معاهداً) أي ذمياً من أهل العهد أي الأمان والميثاق. وإذا كان الأمر كذلك، ألا يحق لي أن أتعجب من الدعوة إلى تغيير نصوص القرآن الداعية إلى الكراهية بزعمهم، في حين تفوح رائحة العنصرية البغيضة من حروف "الكتاب المقدس" عندهم؟

وإذا كان الإسلام يثير الكراهية الدينية، ويؤجِّج نار الصراع البغيض بين البشر - كما يزعم بعضهم - فكيف يبيح القرآن إذاً للمسلم الزواج باليهودية والنصرانية، والأكل من ذبائح أهل الكتاب؟ كيف يدعونا إلى كراهيتهم ثم يبيح لنا مصاهرتهم؟ ألا ساء ما يفترون! كيف يرخِّص لنا البِر بهم والقِسط إليهم ثم يحضُّ على بغضهم كما يدَّعون؟ أليست هذه جسورًا متينة من العلاقات يبنيها الإسلام، لتقوية وشائج القربى وأواصر المودة بين بني البشر؟ لكن العيب كامنٌ في القراءة المبتورة للنصوص، والفهم الناقص الذي لا يرى

(١) رواه أبو داود (٣٠٥٢) من حديث عدد من الصحابة.

اللوحة مكتملة، ولكن ينظر إلى جزءٍ منها، منفصلاً عن بقية الأجزاء، فيظهر مشوشاً مشوَّهاً إلى حدٍّ كبير!



٥- رحمة حقيقية:

غير أن رحمته الواسعة وشفقته الشاملة لم تبق مجرد تعاليم نظرية، بل كانت واقعًا مشاهدًا، كسائر خصاله وخلاله التي ترجمها إلى الحياة العملية بدقة تدعو إلى التقدير والتدبر والمقارنة مع كثير من زعماء الكلام والخطباء الثرثارين المتشدقين، ومؤسسات الشعارات الجوفاء التي تتغنَّى بالحرية والمساواة والإخاء، وهي من ألدِّ أعدائها. ولعل من المناسب أن نستحضر شهادة حبيبة رسول الله وابنة حبيبه وزوجته السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُقه، فأجابت بعبارة وجيزة بليغة معبرة: «كان خلقه القرآن»[1]، ومَنْ أعرفُ بالرجل من زوجه وأهله؟ والأمثلة من سيرته تؤكد شهادة زوجته وتوثقها، وأعماله ﷺ تصدِّقُ أقواله ولا تخالفها، وهذا من دلائل نبوته، وهي عندي أعظم من الخوارق، وأشد تأكيداً لصدقه ﷺ.



(١) رواه أحمد (٢٤٦٤٥) من حديث عائشة.



٦- ذروة الكمال الإنساني:

بلغ رسول الله ﷺ ذروة الكمال الإنساني في جميع أخلاقه وخصاله، وفي جوانب حياته كافَّة، وهو وجهٌ آخر من وجوه إعجازه الأخلاقي. ولو كان تفوُّق محمد ﷺ في جانب الكرم والسخاء، لكان أمراً مألوفاً جرت به العادة، فحاتِمٌ الطائيُّ كان مضرب المثل في الكرم، حتى إنه ذبح فرسه وقدمه طعاماً لضيفانه. وعنترةُ كان مثالاً في الشجاعة والفروسية، لم يُبْل في الحروب أحدٌ بلاءه. وقيسُ بن سعد ابن عبادة بلغ الذروة في الدهاء، ولولا الورع ما غُلب في خصومة قط. والأحنفُ بن قيس اشتُهر بالحِلْم، وأخباره في ذلك غريبة عجيبة.. بَيد أن تفوق محمد ﷺ كان شاملاً لكلِّ هذه الجوانب، وبلغ ذروتها، وتربع على عرشها دون منازع.





٧- التوازن الأخلاقي:

خصوصية أخرى تميز كمالَ محمد ﷺ، وهي التوازن في أخلاقه، فهو رحيم دون ضعف، متواضع بغير ذلة، محاربٌ لا يغدر، سياسيٌّ لا يكذب، يستخدم الحيلة في الحرب ولكن لا ينقض العهود والمواثيق، آمن خصومه بصدقه وأمانته، يجمع بين التوكل والتدبير، وبين العبادة والعمل، وبين الرحمة والحرب، وبين إدارة شؤون أسرته الكبيرة وإدارة المجتمع والدولة، ويعطي لكلِّ ذي حقٍّ حقه. ولم تشْكُ واحدة من أزواجه يوماً من سوء عشرته، لكن اشتكين ذات مرة من خشونة العيش، فخيَّرهنَّ بين البقاء معه أو أن يُسرِّحهُن سراحاً جميلاً، فاخترنه بلا تردد!.

والمقصود أن صفات محمد وخصائصه تأتلف في منظومة متناسقة متناغمة، تتشابك جميعها لتأدية أغراضها، فلا تتوسع صفة أو تقوى على حساب أخرى، ولا تعمل إحداها ضد الصفة التي تقابلها. ووجه العظمة يتجلى لك من خلال الموازنة مع عظماء الناجحين في الحياة، حيث يقتصر نجاحهم ونبوغهم على مجالاتٍ وميادين معينة، فهذا في السياسة، وذاك في الأدب، والآخر في الرياضة مثلاً، ولكنهم يفشلون في مجالات غيرها، قد تكون أكثر أهمية منها، وقد تجد الرئيس الناجح في إدارة شؤون دولته

المترامية الأطراف، فاشلاً في علاقته الزوجية، وفي إدارة بيته مثلاً.

ومظهرٌ آخر للتوازن هو ثبات أخلاقه، فمحمدٌ هو محمدٌ في رضاه وغضبه، وفي سِلْمه وحربه، وفي عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، وفي بيته وسوقه ومسجده، مع أزواجه وأولاده، ومع أصحابه، وفي جميع أحواله وشؤونه. وهذا الثبات قليلٌ في الناس أو نادرٌ، فترى الشخص في رضاه فإذا ما غضب صار شخصاً آخر كأنه ليس هو، وترى الشخص ضحَّاكاً بسَّاماً بين زملائه فإذا دخل بيته عبس وبسر، وتتعرَّف الرجلَ في الحضر فتراه بوجه، ويجمعك به السفر فيسفرُ لك عن وجه آخر، وترى زعيماً ما يفيض في السلم رقة وحناناً فإذا ما اشتعلت الحرب تحوَّل إلى وحش فاتك، وترى السخي الجواد في الرخاء فإذا أصابته شدة ضنَّ بماله وأمسك عن الإنفاق. أما محمد فقد كان سخياً ندياً في سائر أحواله، وكان رحيماً في سائر أحواله، وعلى ذلك فقس بقية الشمائل المحمدية.

ولعلك الآن وصلت إلى الفكرة التي أحاول تقديمها إليك. كان محمد ﷺ يملك القدرة على الجمع بين النقائض أو هكذا تبدو للناس، وهذا معجزة بحد ذاته، لكن ليست من الخوارق التي اشتُهرت عن الأنبياء، وسيرته ﷺ غنية

بالأمثلة والشواهد التي تدلُّ على توازنه الخلقي، منها ما رُوي عن خارجة بن زيد بن ثابت: أن أم العلاء - امرأةً من الأنصار بايعت النبيَّ ﷺ - أخبرته: أنه اقتُسِمَ المهاجرون قُرعَة، فطار لنا عثمان بن مظعون - أي وقع في سهمنا وحصتنا -، فأنزلناه في أبياتنا، فوَجِعَ وجعه الذي توفِّيَ فيه، فلما توفي وغُسل وكُفن في أثوابه، دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: «وما يُدريكِ أن الله أكرَمَه؟» فقلت: بأبي أنت يا رسول الله! فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين (الموت)، والله إني لأرجو له الخَيرَ، والله ما أدري، وأنا رسول الله، ما يُفعَل بي». قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً[١].

فالرسول دخل على عثمان لما مات وذرفت عيناه بالدموع حزناً على فقد رجلٍ من أصحابه، لكنه في الوقت نفسه لم يأذن لأم العلاء أن تقول كلاماً تفجره العاطفة، ويخالف الشرع، ونهاها عنه، وهنا وجه الاستشهاد بقصة عثمان بن مظعون، إذ جمع الرسول بين الرحمة التي تجلت في مشاعر الحزن على صاحبه، والعاطفة الجياشة، وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضبط اللسان

(١) رواه البخاري (١١٨٦).

والجوارح بميزان الشرع الحنيف، في موقف تطغى فيه العاطفة، وتستولي على النفوس، عندما أنكر على أم العلاء قولها في رثاء ابن مظعون.

ولئن كان بعض الناس قد تحجَّرت عاطفته، فلا تتحرك لشيء، ولا ترقُّ لشيء، قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، إن محمداً ليفيض عاطفة ورحمة، يفرح حتى يشرق وجهه، ويحزن حتى إنه مرَّ عامٌ عليه يسمَّى عام الحزن، ويغضب حتى تحمرَّ وجنتاه، ويبكي حتى تبتل لحيته، ويبتسم حتى تبدو نواجذه، وذاك هو الإنسان!.

بَيد أنك تجد رسول الله ﷺ في جميع أحواله: في غضبه وفرحه وحزنه وضحكه وبكائه، متَّزناً معتدلاً، لا يخرجه الانفعال عن حدِّه: فلا الفرح يبطره، ولا الحزن ينسيه، ولا يستطيع الغضبُ أن يغتصب منه زمام أمره وقياد نفسه. وأسوق إليك في هذا المقام قصة من حياة محمد ﷺ، لتقارن فيها بين صورته في فرحه، وصورته في حزنه. في الأولى منهما يستقبل مولوده الذكر الوحيد بعد أن فقد جميع أولاده الذكور، وفي الأخرى يودِّعه وهو في النـزع الأخير. يروي لنا خادمه أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «وُلد لي الليلة غلام، فسمَّيته باسم أبي إبراهيم (أي الخليل).

ثم دفعته إلى أم سيف، امرأة قَيْن (حداد) يقال له: أبو سيف. فانطلق يأتيه واتَّبعتُه، فانتهينا إلى أبي سيف وهو ينفُخ بكِيْرِه، قد امتلأ البيت دخاناً، فأسرعت المشي بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: يا أبا سيف! أمسِكْ، جاء رسول الله ﷺ، فأمسك، فدعا النبي ﷺ بالصبيِّ، فضمه إليه، ودعا له». هذا عند ولادة الغلام، ثم إن الغلام حضره الموت، وقد بلغ سنتين من عمره، فماذا فعل أبوه رسول الله؟ قال خادمه أنس نفسه: «لقد رأيته وهو يجود بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ، فدمَعَت عينا رسول الله ﷺ، فقال: تدمَعُ العين ويحزَنُ القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي رَبَّنا. والله يا إبراهيم! إنا بك لمَحْزونون»[(١)]. وما إِخالك إلا عرفت ما أريده من إيراد القصة في هذا الموضع، ومحل الاستشهاد فيها. غير أن هناك شاهداً آخر في القصة أعظم مما ذكرت، ويدخل في دلائل نبوته ﷺ، فقد روى المغيرة بن شعبة أنه انكسفت الشمسُ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم!. فبماذا أجاب محمد؟ وهل جاراهم فيما اعتقدوه؟ أليست هذه الحادثة فرصة سانحة؛ ليثبت محمدٌ ﷺ مركزه بين الناس، ويدعم دعواه بالنبوة، ولو جاء ذلك على حساب الحقائق العلمية والكونية؟ لو كان محمدٌ كذَّاباً -

---

(١) متفق عليه، البخاري (١٢٤١)، ومسلم (٢٣١٥) واللفظ له.

حاشاه - لفعل ذلك بلا تردُّد، لكن الصادق الأمين ﷺ صحح للناس اعتقادهم الخاطئ، وقال لهم: «إن الشمسَ والقمرَ آيتان من آياتِ الله، لا يَنْكَسِفانِ لمَوتِ أحدٍ ولا لحَياته، فإذا رأيتُموهُما فادعوا الله وصَلُّوا حتى ينجَلي»(١).



(١) متفق عليه، البخاري (١٠١١)، ومسلم (٩١٥) من حديث المغيرة بن شعبة.

المبحث الثاني: من تجلِّيات الرحمة

١- الرِّفق واللين والسُّهولة:

للرفق مكانة عظيمة في ديننا، والرفق ضد العنف والتغليظ والشدة، وهو حسن المعاشرة واللطف والرقة والشفقة واللين والتواضع والتُّؤَدَة والتأني، ويشمل الرفق: الصغار والضعفاء، والزوجة، والجاهل، وسائر الناس، بل والحَيَوان والطير.

والرفق من أخلاق النبوة وآدابها، يمنح صاحبه الجمال ويكسو أعماله به، ومن حُرِمَه فقد حُرم الخير كله. والرفيق من الناس هو كل هين لين قريب سهل، يألف الناس ويألفونه. عن جرير بن عبدالله: عن النبي ﷺ قال: «من يُحرَم الرفق يُحرَم الخير»(١).

وعن عائشة زوج النبيِّ ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة، إن الله رفيقٌ يحب الرفقَ، ويعطي على الرفقِ ما لا يُعطي على العُنْف وما لا يُعطي على ما سِواه»(٢).

وعن عائشة أيضاً: عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الرفقَ لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزَع من شيء إلا شانه»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٢).
(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣).
(٣) رواه مسلم (٢٥٩٤).

والأحاديث والأخبار الواردة في الرفق جَمَّة وافرة، وقد أوردتُ كثيراً منها في الفصل الثالث من البحث، كالرفق بالحَيَوان، والرفق بالمرأة والطفل والمتعلم، والرفق بالنفس وبالناس.

❁ ❁ ❁

٢- السَّماحةُ في المعاملات الماليَّة:

السماحة صفة الإسلام وخصيصة له، يتميز بها عن سائر الأديان والمذاهب، ولذلك نهى عن الرهبانية والتبتُّل وترك الشهوات المباحة؛ رحمة بالناس، وورد في الحديث الصحيح: «أحبُّ الدِّين إلى الله الحَنيفيَّةُ السَّمْحَة»(١) و(السمحة) تعني السهلة التي لا تشدُّد فيها ولا عَنَت، ولا حرج فيها ولا تضييق. وقد ذمَّ الشرع الغلوَّ والتنطع بالحمل على النفس فيما لم يأذن فيه الله تعالى، وإنما ندب إلى الشدة على الأعداء المحاربين، وفي نطاق الحرب زماناً ومكاناً، وسيأتي تفصيله.

ومن آداب التجارة في الإسلام: السماحة في المعاملة، والتحلِّي بعالي الأخلاق، وترك المُشاحَّة والتضييق على

(١) علقه البخاري قبل الحديث (٣٩)، ورواه أحمد في "المسند" (٢١٠٧) من حديث ابن عباس.

الناس بالمطالبة، وإنظار المُعسِر، والتساهل في المعاوضات المالية كالبيع والشراء والدَّين والإجارة ونحوها.. والجود والكرم والعطاء بين المتعاقدين. والآثار الواردة في ذلك كثيرة، منها ما ورد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سَمْحاً (جواداً متساهلاً يوافق على ما طُلب منه) إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى (أي طلب حقه)»[١]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجلٌ يُداينُ الناس، فكان يقولُ لفتاهُ: إذا أتيتَ مُعسِراً فتجاوَز عنه، لعلَّ اللـهَ أن يَتجاوَزَ عنا، قال: فلَقِيَ اللهَ فَتجاوَزَ عنه»[٢]. ومصداقه من كتاب الله قوله سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾[٣].

❁ ❁ ❁

٣- حسن الخُلُق والرِّفق في الدَّعوة والمعاملة:

حسن الخلق والرفق ولين الجانب وبشاشة الوجه تحبِّب صاحب الدعوة إلى الناس، وتقربهم منه، بخلاف الغلظة والعنف والخشونة في التعامل فإنها تنفرهم منه، وتبغِّض

(١) رواه البخاري (١٩٧٠).
(٢) متفق عليه، البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (١٥٦٢).
(٣) البقرة: ٢٨٠ .



الإسلام إلى قلوبهم، فيكون هذا الداعية الفظُّ الغليظ فتنةً لهم لا رحمة.

ومن الرفق حسن الخطاب، والآيات فيه كثيرة منها: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[١]، و﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٣]، لأن اللين في الخطاب أدعى إلى إجابة المدعوِّين، أما المخاشنة فتنفِّرهم عن الإجابة، وقد تؤدي إلى وقوع التسابِّ والخصومة والعنف، وهو ما لا يرضاه الله. ولذلك أمر الله رسوليه موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون، بالرفق واللين في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[٤]. وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ هذه الآية: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فبكى يحيى وقال: إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله، فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله؟.

والقرآن الكريم يقرر بوضوح أن الخشونة والغلظة فتنة لا دعوة، فقد خاطبَ الرسول ﷺ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[٥]، ولا غرو أن وجدناه ﷺ أحسن

(١) البقرة: ٨٣ .
(٢) الإسراء: ٥٣ .
(٣) العنكبوت: ٤٦ .
(٤) طه: ٤٤ .
(٥) آل عمران: ١٥٩ .



الناس خُلُقًا، وأكثرهم رفقًا، وألطفهم عشرة، يعفو عن المسيء، ويصفح عن المخطئ، حتى وصفه مولاه سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1].



٤- التيسير:

تتجلَّى رحمة الله تعالى في يسر الأحكام الشرعية العملية، وهي خصيصة من خصائص التشريع الإسلامي، وصفة عامة للشريعة الإسلامية في أحكامها الأصلية التي تلزم المكلفين. قال الشاطبي: إن الشارع لم يقصد إلى التكليف بالشاق والإعنات فيه[2]. والنصوص الدالة على ذلك كثيرة، كقوله تعالى في بيان وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[3]، ونصوص أخرى تبيِّن ذلك صراحة كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) "الموافقات" ٢/ ١٢١.

(٣) الأعراف: ١٥٧.



ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[1]، ومنها ما امتنَّ الله تعالى به في سياق بيان بعض الأحكام الفرعية من أنه لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها، كقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾[2] وقوله جل وعلا: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾[3] وقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾[4]. ومن اليسر إعفاء الصغير، والمجنون، والنائم، من سريان الأحكام التكليفية عليهم، وإعفاء النساء من وجوب صلاة الجمعة والجماعة. وهذا معنى كثير من الاشتراطات التي تشترط لوجوب حقوق الله تعالى في العبادات، والحدود، وبعض حقوق العباد كحق القِصاص، وحق حد القذف، فقد اشترط فيها جميعًا البلوغ والعقل، واشترط في حد الزنى أربعة شهود تقليلاً لحالات وجوب الحد؛ تخفيفاً وتيسيراً، واشترط للرجم، لشدته،

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) الأعراف: ٤٢ .
(٣) البقرة: ٢٣٣ .
(٤) الأنعام: ١٥٢ .



الإحصان تخفيفاً عن غير المحصن، واستثنى الوليَّ الفقير من منع الأكل من مال اليتيم؛ تخفيفاً عنه، فقد أذن له أن يأكل لكن بالمعروف[١]، وفي هذا الباب أمثلة كثيرة وافرة.

ومنها ما عُلم في مواضع كثيرة من السنة النبوية أن النبي ﷺ كان يتفادى ما يكون سبباً لتكاليفَ قد تشق على المسلمين، وكان يتجنب أن يصنع شيئاً يكون فيه مشقَّة على أصحابه إذا اقتدوا به فيه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[٢]، فمن ذلك أنه ﷺ كان يحثُّ أصحابه على ترك السؤال؛ لئلا تفرض عليهم فرائض بسبب سؤالهم. فقد سأله رجل عن الحجِّ: أفي كل عام هو؟ فقال: «لو قلتُ نعم لوَجَبَت، ولما استطعتم، ذَروني ما تركتكم»[٣]. وقال: «لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتُهم بالسِّواك عند كلِّ وضوء»[٤]. وقال: «ولولا أن أشقَّ على أمتي ما قَعَدت خلفَ سرية»[٥]. وقال: «لولا أن أشقَّ على

(١) انظر: الموسوعة الكويتية، مادة: (تيسير، رخصة، رفع الحرج).
(٢) التوبة: ١٢٨.
(٣) رواه مسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة.
(٤) علقه البخاري قبل الحديث (١٨٣٢)، ورواه ابن خزيمة في "صحيحه" (١٤٠) من حديث أبي هريرة.
(٥) متفق عليه، البخاري (٣٦)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة.

أمتي لأمرتهم أن يؤخِّروا العِشاء إلى ثُلُث الليل أو نصفه»[١].

وكان ﷺ يحب التيسير على الناس، ويأمر به. قالت عائشة: خرج النبي ﷺ من عندي وهو مسرور طيب النفس، ثم رجع إلي وهو كئيب! فقال: «إني دخلتُ الكعبةَ ولو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما دخلتها، إني أخافُ أن أكونَ قد شَقَقتُ على أمتي»[٢]، وتقع المشقة والتعب على الأمة؛ لقصدهم الاتباع لرسول الله في دخول الكعبة وذاك لا يتيسَّر لغالبهم إلا بتعب. وقد وقع الإجماع على عدم قصد المشقة والعنت في التكليف، وأنه وُضِع على قصد الرفق والتيسير، وعلى هذا لم يزل أهل العلم والفتيا في الأمة على طلب التيسير على الناس. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٣]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[٤]، وقال ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا»[٥]. وجاء في وصفه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خُيِّر النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسَرَهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدَهُما منه،

(١) رواه الترمذي (١٦٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داود (٢٠٢٩).

(٣) البقرة: ١٨٥ .

(٤) الطلاق: ٧ .

(٥) متفق عليه، البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس.



والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قطُّ حتى تُنتَهَك حرمات الله فينتقمَ لله»[(١)]. وورد في الكتاب العزيز أنَّ من أبرز أوصاف الرسول الكريم ﷺ أنه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[(٢)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الدِّين يُسْر، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا وأبشِروا»[(٣)]. وقال أيضاً: «إن الله تعالى لم يبعثني مُعَنِّتاً، ولا مُتَعَنِّتاً، ولكن بعثني مُعلِّماً مُيسِّراً»[(٤)] ومن أنواع اليسر ما يسميه الأصوليون والفقهاء اليسر التخفيفي، وهو ما وضع في الأصل ميسَّراً، غير أنه طرأ فيه الثقل بسبب ظروف استثنائية، وأحوال تخص بعض المكلَّفين، فيخفف الشرع عنهم من ذلك الحكم الأصلي، كأحكام المريض والمسافر، وصلاة الخوف والمطر، ونحوها[(٥)]، وتفصيل ذلك يطول، والبحث يضيق عنه.



---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٤).
(٢) الأعراف: ١٥٦ .
(٣) رواه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة.
(٤) رواه مسلم (١٤٧٨) من حديث جابر بن عبدالله.
(٥) "الموسوعة الفقهية" الكويتية: مادة التيسير واليسر.



٥- الرُّخَص الشرعيَّة:

الرخصة في اللغة: اليسر والسهولة. وفي الشريعة: هي ما وُسِّع على المكلَّف في فعله؛ لعُذْر، وعَجْز عنه، مع قيام السبب المحرِّم. كتناول الميتة عند الاضطرار، وسقوط أداء رمضان عن المسافر. وهذا هو المراد من عبارات الأصوليين، وهو المعنى الحقيقي للرخصة. ويقابلها العزيمة التي هي: ما لزم العباد بإيجاب الله تعالى.

وقد شُرعت الرخص لرفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة، لفقدان المصالح الضرورية. ورفعُ الحرج مَقصِد من مقاصد الشريعة وأصل من أصولها، فإن الشارع لم يقصد إلى التكليف بالشاق والإعنات فيه، وقد دلَّ على ذلك الكتاب والسنة وانعقد الإجماع عليه. فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾[3]. ومن السنة قول النبي ﷺ: «بُعثت بالحَنيفية السَّمْحَة»[4]. وانعقد الإجماع على عدم

---

(١) المائدة: ٦ .

(٢) البقرة: ١٨٥ .

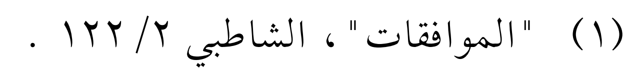
(٣) النساء: ٢٨ .

(٤) رواه أحمد في "المسند" (٢٢٣٤٥) من حديث أبي أُمامة.



وقوع الحرج في التكليف، وهو يدل على عدم قصد الشارع إليه، ولو كان واقعًا لحصل في الشريعة التناقض والاختلاف، وذلك منفيٌّ عنها، فإنه إذا كان وضع الشريعة على قصد الإعنات والمشقة، وقد ثبت أنها موضوعة على قصد الرفق والتيسير، كان الجمع بينهما تناقضاً واختلافاً، وهي منزَّهة عن ذلك[(١)]. لكن قد يقع الحرج لظروف استثنائية تُلِمُّ بالمكلَّف، فيقتضي ذلك رفع الحرج عنه. ورفع الحرج: إزالة ما في التكليف الشاقِّ من المشقة برفع التكليف من أصله أو بتخفيفه أو بالتخيير فيه، أو بأن يجعل له مخرجاً. ورفعُ الحرج لا يكون إلا بعد الشدة خلافاً للتيسير.

ثم ما ثبت أيضاً من مشروعية الرُّخَص، وهو أمر مقطوع به، ومما علم من دين الأمة بالضرورة، كرخص القصر، والفطر، والجمع، وتناول المحرمات في الاضطرار. فإن هذا نمط يدل قطعاً على مطلق رفع الحرج والمشقة. وكذلك ما جاء من النهي عن التعمُّق والتكلف لما يسببه من الانقطاع عن دوام الأعمال. ولو كان الشارع قاصداً للمشقة في التكليف لما كان ثَمَّ ترخيص ولا تخفيف[(٢)]؛ ولأجل ذلك لم يجب شيء من الأحكام على الصبي العاقل لقصور البدن، أو


(١) "الموافقات"، الشاطبي ٢/ ١٢٢.

(٢) المرجع السابق.



لقصوره وقصور العقل، ولا على المعتوه البالغ لقصور العقل. ولم يجب قضاء الصلاة في الحيض والنِّفاس، وانتفى الإثم في خطأ المجتهد، وكذا في النسيان والإكراه.

ومنه القاعدة الفقهية: (المشقَّة تجلب التيسير)، قال الفقهاء: على هذه القاعدة يتخرج جميع رُخَص الشرع؛ كالتخفيف لأجل السفر والمرض ونحوها. ومثلها قاعدة: (الضرورات تُبيح المحظورات)، كأكل الميتة عند المَخْمَصَة، وإساغة اللقمة بالخمر ونحوها. قال الشاطبي: إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع[١].

والرخص الشرعية من مظاهر التيسير ورفع الحرج، والأخذ بها لا يدلُّ على ضعف الإيمان كما يتوهم بعض الناس، بل قال رسول ﷺ: «إن الله يحبُّ أن تؤتى رُخَصُه كما يكره أن تؤتى معصيتُه»[٢] وفي رواية في صحيح ابن حبان أيضاً وإسنادها قوي: «كما يحبُّ أن تؤتى عَزائمُه»[٣]. وقد يُقبل من المسلم أن يشدد على نفسه بقدر، ويعمل بالعزائم، ويدع أحياناً بعض الرخص والتيسيرات في الدين؛

(١) المرجع نفسه ١/ ٣٤٠ .
(٢) "صحيح ابن حبان" (٢٧٤٢) من حديث ابن عمر، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.
(٣) "صحيح ابن حبان" (٣٥٤) من حديث ابن عباس.

لنشاطٍ وسعةٍ يجدها من نفسه، أو لشبابٍ وفراغٍ وعلو همة، لكن الذي لا يُقبل منه بحال أن يُلزم بذلك عامة الناس، وبخاصة إن جلب عليهم الحرج في دينهم، والعنت في دنياهم، ولهذا كان النبي ﷺ أطول الناس صلاة إذا صلى لنفسه، حتى إنه كان يقوم بالليل فيطيل القيام حتى تتورَّم قدماه عليه الصلاة والسلام، لكنه كان أخفَّ الناس صلاة إذا صلى بالناس، مراعياً ظروفهم وأعمالهم وتفاوتهم في القدرة والاحتمال، وقال: «إذا صلى أحدكم بالنَّاس فليُخفِّف، فإن فيهم الضعيفَ والسقيمَ والكبيرَ، وإذا صلى أحدُكم لنفسه فليُطَوِّل ما شاء»(١). وقال لمعاذ لما أطال الصلاة بالقوم: «أفتَّانٌ أنت يا معاذ؟! وكرَّرها ثلاثاً». وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخلُ في الصلاة وأنا أريدُ إطالتها، فأسمعُ بكاء الصبي، فأتجَوَّز في صلاتي، مما أعلم من شدَّة وَجْد أمه من بكائه»(٢).



(١) رواه البخاري (٦٧١) من حديث أبي هريرة.
(٢) متفق عليه، البخاري (٦٧٨)، ومسلم (٤٧٠).



٦- التدرُّج في التعليم والتربية والتشريع والحدود:

التدرج بالناس في الدعوة والتعليم، من الأمور المطلوبة من الدعاة بتوجيه إمامهم ﷺ القائل: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا»[1]. فلا يُطالَبُ حديث العهد بالإسلام بأداء جميع التكاليف الشرعية، مثلما يُطالَب المسلم الذي ولد في الإسلام، ورضع مناهجه ونشأ عليه، وتربى في أحضانه، وورث ثقافته وتقاليده من أسرته ومجتمعه، أو مثلما يطالَب المسلم الملتزم الذي ارتقى في درجات الخير، وأصبح أسوة للناس. بل نترفق بحديث عهدٍ بالإسلام، ونتألف قلبه، ونتدرج به شيئاً فشيئاً؛ خشية الإعنات له. فهو ممن يسميهم القرآن المُؤلَّفة قلوبهم، وهؤلاء يُعطَون سهماً من الزكاة، وتأليف قلوبهم لا يقتصر على ذلك.

والتدرج أسلوب من أساليب الدعوة والتربية والتشريع، استخدمه الإسلام في بناء الفرد والمجتمع والدولة، وتحريم الخمر مثالٌ مناسب للتدرُّج، فقد جاء تحريمه على ثلاث مراحل؛ رحمة بالناس، وقد نجح نجاحاً منقطع النظير في تجفيف هذه العين الآسنة وصدِّ الناس عنها، وكانوا من قبلُ يعشقونها، ويتغنى شعراؤهم بها، فلما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) متفق عليه، البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس.



ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [١] قالوا: انتهينا انتهينا.



٧- الوسطية أو الاعتدال والتوازن:

إن التوازن سمة الكون كله على اتساعه وضخامته، وهو سمة الإنسان السويِّ الذي لم تنحرف فطرته، وسمة الإنسان الصالح المسلم، وثمرة المنهج الموزون الذي وضعه خالق الكون وخالق الحياة وخالق الإنسان. و التوازن معنى واسع يشمل كل نشاط الإنسان وطاقاته المتنوعة، فهو «توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل، وطاقة الروح، توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته، توازن بين ضروراته وأشواقه، توازن بين الواقع والخيال، توازن بين الإيمان بالشهادة والإيمان بالغيب، توازن بين الفردية والجماعية، توازن في النظم الاقتصادية و الاجتماعية والسياسية، توازن في كل شيء في الحياة»[٢]. إن التوازن هو أساس نظرة الإسلام إلى الحياة

(١) المائدة: ٩٠-٩١.

(٢) "منهج التربية الإسلامية"، محمد قطب، ص ٢٩-٣٠.



والإنسان، فالإسلام يوازن بدقة بين مُختَلِف القوى والطاقات، ويقع في مركز وسط بين المادية المفرطة التي تحصر مِساحة الحياة بما يقع في نطاق الحواس، والروحانية المغرقة التي تهمل عالم المادة وتستقذره وتلغيه من حسابها. إلا أن بلوغ فضيلة التوازن مهمة صعبة وتكليف عسير، لما غلب على الإنسان من الظلم والجهل. ولذلك تحتاج الاستقامة على منهج التوازن إلى تعب ونَصَب ومراقبة، وهو هدف جدير بأن ينصَب له الإنسان، لأنه يحرز له منتهى السعادة والاستقرار والأمن في حياته الروحية والمادية، وفي داري الدنيا والآخرة. ولا نبالغ إذا قلنا: إن أكثر ما يصيب الناس من اضطراب وقلق وجزع وهلع وتعاسة وشقاوة، ما هو إلا ثمرة اختلال التوازن أو فقدانه جزئياً أو كلياً، وبتعبير آخر هو ثمرة الطغيان والانحراف. ولذلك يحرص الإسلام على تحقيق التوازن رحمة بالناس، وعلى استدامته في كل صغيرة وكبيرة في حياتهم، وفي كل تشريع من تشريعاته، ويجعله سمة ثابتة وأصيلة في منهجه، وهدفاً أساسياً يستنفر له كل طاقات الإنسان وقدراته[١].





(١) المرجع السابق، ص ٣١ .

٨- التسامح والعفو:

من معاني العفو: إسقاط الحق وترك المطالبة به، تقول: عَفَوتُ عن فلان إذا تركتَ مطالبته بما عليه من الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١) أي التاركين مظالمهم عند الناس لا يطالبونهم بها. والعفو من معالي الأخلاق، ندب إليه الشرع، وحثَّ عليه، والآيات والأحاديث في الترغيب بالعفو كثيرة، منها ما وصف الله به عباد الرحمن، فقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ (٢)، وقال أيضاً: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾(٣).

والعفو من أعظم أخلاق محمد ﷺ، وقد ذهبت كلمته: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» مثلاً، بعد أن أمكنه الله من رقاب أعدائه من مشركي قريش، متأسياً بأخيه يوسف الصديق الذي عفا عن إخوته، قائلاً لهم: «لا تثريب عليكم اليوم!». ومن أجمل قصص العفو قصة أبي بكر رضي الله عنه - وزير رسول الله وخليفته من بعده - ومِسْطَح بن أُثاثَة، وذلك أنه كان ابنَ بنت خالته، وكان من المهاجرين البدريين المساكين، وأبو

(١) آل عمران: ١٣٤ .
(٢) الفرقان: ٦٣ .
(٣) الزخرف: ٨٩ .



بكر ينفق عليه لمسكنته وقرابته، فلما وقع أمر الإفك - وهو اتهام المنافقين لعائشة بنت أبي بكر وزوج النبي - خاض فيه مِسْطَح، فغضب أبو بكر، وحلف ألا ينفق عليه، ولا ينفعه بنافعة أبداً، ولكن الله سبحانه دعاه إلى العفو والصفح، فقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1]. فقال أبوبكر: بلى أي رب! والله إني لأحبُّ أن يغفرَ الله لي، فرجع إلى مِسْطَح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبداً[2].

والصفح ترك المؤاخذة، وهو أبلغ من العفو، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ﴾[3] وقد يعفو الإنسان ولا يصفح، ولكن أبا بكر عفا وصفح لتخلُّقه بأخلاق رسول الله ﷺ، ولاقتدائه به في العفو والصفح.



(١) النور: ٢٢ .
(٢) "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي ١٢/ ١٨٥ .
(٣) البقرة: ١٠٩ .









الفصــــل الثــالــث

رحـمـة حـقـيـقـيـة

صورة من الرحمة المهداة





الفصل الثالث :

رحمةٌ حقيقيَّة

لم تبق رحمته ﷺ مجرد تعاليم نظرية أو مواعظ جوفاء، بل ترجمها إلى الحياة العملية بدقة تدعو إلى التقدير وتغري بالتدبُّر في أسرار هذه الظاهرة الفذة، أما الصور والأمثلة من سيرته على رحمته فكثيرةٌ جداً، وأعماله تصدِّقُ أقواله ولا تخالفها، وهذا من دلائل صدقه ﷺ في دعوته.

صور من الرحمة المهداة

أما صور ومظاهر الرحمة في حياته وسيرته مع أهله وأولاده وأقاربه وأصحابه ومع سائر الناس، بل مع الحَيَوان والطير، فإنه يصعب حصرها واستقصاؤها، لكن سأعرض صوراً من رحمته ﷺ، استقيتها من سيرته العطرة، وإن كانت سيرته رحمة كلها ورفقاً وليناً وخلقاً كريماً، لا تملك إلا الإعجاب به وإن لم تكن من أتباعه، بل حتى لو كنت من عدوه، فقد كان ﷺ يتمتع بشخصية جذابة آسرة، ووصفت أخلاقه بأنها كانت معجزة، أي لا يملك أحدٌ من الناس أن يدانيها، فضلاً عن أن يضاهيها، وكان كثيرٌ من المشركين الذين يقابلون محمداً؛ لمحاولة إقناعه والتأثير فيه بترك

دعوته، يخفقون في هذه المهمة، وربما وقع بعضهم في شَرَك رحمته، وأعلن الإسلام على رؤوس الأشهاد، ويحضرني صورٌ وشواهد كثيرة من السيرة لا مجال لسردها.

١- رحمته ﷺ بالأطفال:

هذا رجل بدوي غليظ القلب يدخل بيتَ رسول الله ﷺ، فلنر تعليق البدوي عندما رأى رحمة الرسول الكريم بأولاده، ومزاحه ولعبه معهم وتقبيله لهم! عن أَبي هُرَيرةَ قال: أَبْصَرَ الأَقْرَعُ بنُ حَابِسٍ النبيَّ ﷺ وهُوَ يُقَبّلُ الحَسَنَ فقال: إنَّ لي مِنَ الوَلَد عَشَرَةً ما قَبّلْتُ أحَداً مِنْهُم، فقال رسول الله ﷺ: «إنّهُ مَن لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»(١). قانون حاسم ثابت صاغه محمد ببلاغته المعروفة، لا يحابي فيه القُساة الجُفاة، ولا يجاملهم أو يسايرهم، وعقوبة زاجرة لغِلاظ الأكباد الذين جفت الرحمة من قلوبهم، فمن لا يرحم الخلقَ لا يرحمه الخالق، كلماتٌ خالدة من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ.

وتحكي أمُّ خالدٍ بنت خالدِ بن سعيد - من ذكريات الطفولة- عن زيارتها لرسول الله ﷺ برفقة أبيها، وكانت حديثة السن، قالت: أتيتُ رسولَ الله ﷺ مع أبي وعليَّ قميصٌ أصفرُ، قال رسولُ الله ﷺ: «سَنَه سَنَه»، وهي

(١) متفق عليه، البخاري (٥٦٥١)، ومسلم (٢٣١٨).



بالحبشية: حسنة. قالت: فذَهبتُ ألعبُ بخاتم النبوَّةِ، فزَبرَني أبي، قال رسولُ الله ﷺ: «دَعْها». ثم قال: «أبلِي وأخْلِقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي»(١). إنها النبوة! أخلاق نبي لا ملِك، تواضع ورحمة لا حدود لها. وانظر- رعاك الله- كيف تركَ الرسول ﷺ هذه الصَّبيةَ الصغيرة تعبث كما يحلو لها بخاتَم النبوة على كتفه، فلا ينهرها، ثم تراه يمازِحُها ويلاعبها ويخاطبها بلغة أهل الحبشة، وكانت قد نشأت فيها، ويستحسن ثوبها تطييباً لخاطرها! الملوك لا يفعلون ذلك!

ومن تواضعه ورحمته أنه ﷺ كان يسلِّم على الصبيان في الطرقات، ويمسح على رؤوسهم ووجوههم، فعن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه، قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله، وخرجت معه، فاستقبله وِلْدانٌ، فجعل يمسح خَدَّي أحدهم واحدًا واحدًا. قال: وأما أنا فمسح خدِّي. قال: فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جُؤنَةِ عطَّار(٢). نعم، كثيراً ما نرى بعض الزعماء السياسيين يسلمون على الأطفال ويلاطفونهم، ولكن ذلك غالباً ما يحدث تحت الأضواء، وفي المناسبات، أو قبيل الانتخابات فحسب!.

(١) رواه البخاري (٢٩٠٦).
(٢) رواه مسلم (٢٣٢٩).



رحمة الرسول ﷺ بغلامٍ يهودي:

كان غُلامٌ يهوديٌّ يَخدمُه ﷺ فمَرِضَ، فأتاهُ النبيّ ﷺ يَعودُهُ، فقعَد عندَ رأسهِ فقال لهُ: «أسلِمْ». فنظَرَ إلى أبيهِ وهوَ عندَهُ، فقال له: أطِعْ أبا القاسِم. فأسلمَ، فخَرَجَ النبيّ ﷺ وهو يقول: «الحمدُ للهِ الذي أنقَذَهُ منَ النار»[١]. قد تعترض وتقول: وهل دعوة الغلام إلى الإسلام رحمة؟ وربما تقول: هذا تغريرٌ بطفل صغير لا يقدر على التمييز!. ولن أتأخر عليك بالجواب لأبدِّد لك هذه الريبة التي تتردد في صدرك، وأقول لك: إن الرسول محمداً ﷺ يرى في دعوته للغلام إنقاذاً له من نار جهنم، وهو في نظرنا ليس مجردَ رأي بل هو الحق لا ريب فيه! أليس إنقاذك لشخص ما من حريق اندلع في بيته أو مكتبه مثلاً، يريد أن يلتهمه، رحمة له؟ فما بالك إذا كان إنقاذك إياه من نار جهنم؟ وهذا شعور رسول الله وعاطفته النبيلة الجَيَّاشة تجاه سائر الناس، ويحضرني حديث عنه ﷺ، يمثِّل فيه لرحمته بتصوير رائع بليغ، فيقول: «مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ ناراً فَجَعَلَ الفَراشُ والجَنادِب يَقَعْنَ فِيهَا، وهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْها، وأَنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي»[٢]. هل رأيت المشهد التصويري

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٠) من حديث أنس.

(٢) رواه مسلم (٢٢٨٥) من حديث جابر بن عبدالله، وبنحوه رواه البخاري (٣٤٢٦)، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة.

العجيب لرحمة هذا النبي الحبيب؟ أليس من الحَيْف والظلم البشع أن يصوَّر في مشهدٍ مخالف تماماً كذلك المشهد المرعب الذي صوَّرته فيه صحيفة (جلاندز بوستن) الدانماركية وأخواتها الأوربيات؟ لكنه قلب الحقائق! تلك الصنعة التي أجادها بعض بني البشر، وتفوَّقوا فيها على الشياطين أنفسهم! والتعصب الممقوت الذي لم تستطع الحضارة المعاصرة التحرُّر من أسره حاشا بعض المنصفين والعقلاء الذين مجَّدوا محمداً ﷺ، واعترفوا بعبقرية العرب وأثرهم في الحضارة الإنسانية(١).



٢- رحمته ﷺ بأهله:

أَولى الناس برحمة الرجل هم أهله، أي زوجته وأولاده، فإذا لم يرحمهم فمن يرحم؟! ولذلك كان رسول الله من أرحم الناس بأهله، ويقول: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي»(٢).

---

(١) انظر: "شمس الله تسطع على الغرب"، د. زيغريد هونكه، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٤م.

(٢) رواه الترمذي (٣٨٩٥) من حديث عائشة.

رحمته ﷺ بأزواجه:

تزوج رسول الله اثنتا عشرةَ زوجة، أولاهن خديجة، ولم يتزوج عليها حتى توفيت، وجمع بين تسعٍ في آن واحدٍ: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بنٍ الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وسودة بنت زمعة بن قيس، وزينب بنت جحش بن رئاب، وميمونة بنت الحارث بن حزن، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وصفية بنت حيي بن أخطب. وكان ﷺ نِعم الزوجُ، يغدق عليهنَّ من حبه وعطفه وحنانه، ويعدل بينهن فلا يجور ولا يميل، وكان يقوم بمهنتهن وخدمتهن، ويعمل بيده، ويكنس بيته، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه.

وبلغت رقته الشديدة مع زوجاته أنه كان يشفق عليهن حتى من إسراع الحادي في قيادة الإبل التي يركبنها، فقد كان ذات مرة في سفر، وكان هناك غلامٌ اسمه أَنْجَشَة يحدو ببعض أمهات المؤمنين وأم سليم، فاشتد بهن في السَّوْق، فقال النبي ﷺ: «رُوَيدَكَ يا أَنْجَشَة(١) سَوْقَكَ بالقَوارير»(٢). أي أمهل وارفق، و(القوارير) جمع قارورة، وكني بذلك عن النساء؛ لضعف بنيتهن ورقتهن ولطافتهن، فشُبهن بالقوارير من الزجاج، وفيها ملاطفة وتودُّد إلى النساء.

---

(١) غلام أسود حبشي، كان مملوكاً للنبي ﷺ، يكنى أبا مارية.

(٢) متفق عليه، البخاري (٥٧٩٧)، ومسلم (٢٣٢٣) من حديث أنس.



وكان يوصي بالنساء خيراً، ويحذِّر الأزواج من ظلمهن، إذ كان يقول: «ألا واسْتَوْصُوا بالنّساءِ خَيراً، فإنّما هُنّ عَوانٍ عِنْدَكمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنهُنّ شَيْئاً غَيْرَ ذلِكَ، إلّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهجُرُوهُنّ في المَضاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنكُم فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنّ سَبيلاً. أَلا إنّ لَكُمْ عَلَى نِسائِكُم حَقّاً، ولِنسائِكمْ عَلَيْكُمْ حَقاً. فَأَمّا حَقُّكمْ عَلى نِسَائِكُمْ فَلا يُوطِئنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، ولا يَأْذَنّ في بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. ألا وحَقُّهُنّ عَلَيْكُمْ أنْ تُحسِنُوا إِلَيْهِنّ فِي كِسْوَتِهِنّ وطَعامِهِنّ»[١].

❁ ❁ ❁

شبهةٌ والردُّ عليها: ضرب الزوجة غِلظة لا رحمة!

قد تتعجب وتسأل مستنكراً: أين رحمة محمد ﷺ بالزوجة، وشريعته تبيح ضربها؟

وقبل أن أبدأ بالرد أذكِّرك بأن ضرب الزوجات قد غدا اليوم ظاهرة عالمية ومشكلة عامة، لا تخصُّ المسلمين فقط، ولكن تستفحل عند غير المسلمين والأمريكيين بخاصة، انتقاماً لا تأديباً، وبغلظة وفظاظة، لا ضرباً غير مبرِّحٍ كما

---

(١) رواه الترمذي (١١٦٣)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. ومعنى قَوله (عَوانٍ عِنْدَكُم): أسيرات في أيْدِيكُم.

اشترطه شرعُنا، ومثَّلوا له بالضرب بسِواك ونحوه.

وأمرٌ آخر أنبِّه عليه، وهو أن المذاهب والشرائع الوضعية التي كانت تسود العالم آنذاك، كانت تشرِّعُ العنف ضدَّ المرأة إلى حد القتل! وبعد أن قررتُ هاتين الفكرتين في هذه المسألة أشرع بالرد على الشبهة، لأقول:

إن الإسلام لا يقرُّ العنفَ ضد المرأة، غير أن الشرع أباح استخدام الضرب للتأديب في نطاقٍ ضيقٍ جداً، وذلك خاصٌّ بالمرأة الناشز التي خرجت عن قَوامة زوجها، وصارت تهديداً لنظام الأسرة، وأصَرَّت عليه، إذ لا يُبيح الإسلام اللجوء إلى الضرب إلا بعد استخدام الوعظ أولاً. ثم يجرَّب الهَجْر في المضاجع في أثناء النوم بشروط وضوابط فقهية، تراجع في مَظانِّها، ولا يهجر إلا في البيت، فإذا لم يُجْدِ الوعظ ولا الهجر فلا حرج من اللجوء إلى ضربٍ غير مبَرِّح، هو إلى التهديد أقرب منه إلى الإيلام، إذا وجد المصلحة في ذلك، ومثل هذه المرأة التي لم يُصلحها وعظٌ ولا هجرٌ - والهجر عند النساء أشدُّ من الضرب نفسه؛ لرقتهن وغلبة العاطفة عليهن - غالباً ما تكون في حالة شذوذٍ نفسي، وقد ينفع فيه العقاب البدني حَلًّا أخيرًا، وهو - برغم ما فيه من ضررٍ على المرأة - خيرٌ من الطلاق وتمزيق الأسرة، وهذا أشبه ما يكون بقانون الطوارئ، أو الضرورة

التي تُباح في بعض الحالات الاستثنائية. لكن بعض الأزواج لا يضع عصاه، وهذا تعسُّفٌ في استعمال الحق، لا يقبله الإسلام.

وإذا كان لابدَّ من كلمة أخيرة، فأقول: إن التشريع الإسلامي في هذه القضية موزون ومعتدل ومنطقي بالنظر العام إلى نظامه القانوني الذي يعطي الرجل حَقَّ القَوامة على الأسرة أي رئاسة مؤسسة البيت وتدبير شؤونه، ومثل هذه السلطة لا بد لها من قوة تجعلها نافذة وفاعلة وضابطة وإلا فإنها ستبقى حبراً على ورقٍ ليس غير، إلا أن عماد هذه القوة الداعمة هو الوازع الدينيُّ عند المرأة قبل أيِّ شيءٍ آخر.

شبهةٌ أخرى: زواجه ﷺ عائشة:

ويتملكني شعورٌ أن بعض الحالات التي نثيرها في هذا البحث، قد لا تجد لديك القدرة على هضمها أو الاقتناع بها؛ لعوامل ثقافية وحضارية وغيرها تفرض مثل هذا الاختلاف في وجهات النظر، غير أني أريد أن أذكِّرك وأنت تقرأ حياة محمد، أن تعيش زمانه ومجتمعه، وتحكم على كثيرٍ من الأمور بمنطق زمانه ومجتمعه وموازينهما لا بمنطقك وقناعاتك، ولا يعني كلامي هذا بحال من الأحوال أني أقيِّد

الإسلام بزمانه ومكانه وأهله الأوَّلين، لأنه رحمة عامة وشاملة تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتتجاوز عصر نزوله، وتخرج عن حدود أرض العرب التي أشرقت عليها شمس الرسالة، فالإسلام صالحٌ لكل زمان ومكان، بل - بتعبيرٍ أقوى وأصح - لا يصلح لكلِّ زمان ومكان إلا الإسلام، لكن ما قصدته هو اعتبار العُرْف واختلاف الزمان والمكان في النظر إلى كثيرٍ من الأمور، وأضرب لك مثلاً زواج رسول الله ﷺ بالسيدة عائشة، وهي بنت تسع سنوات، قد يَقُفُّ شعر رأسك، وتصرخ: هذا ظلم!.

لكن رويدك قليلاً: ألم يكن لمحمدٍ ﷺ أعداءٌ وخصومٌ؟. بلى؛ إنهم كثيرون جداً، وأعداءٌ ألداء أيضاً، ويرصدون كل حركاته وسكناته، ويتصيدون له الأخطاء!

والسؤال: لماذا لم يشَنِّعوا عليه مثل هذا الزواج؟ لماذا كفُّوا ألسنتهم عن إثارة هذه الشبهة في وقتها؟. والجواب سهلٌ جداً، يفطن له اللبيب وغير اللبيب: إن هذا الزواج مقبولٌ اجتماعياً، وأعرافهم تقرُّه وتتقبله، ولا ترى فيه بأساً. ثمَّ إن البنات يتفاوتن في سن النُّضْج بين بيئة وأخرى، بل يختلفن في بيئة واحدة، وكثيراً ما ترى البنت حديثة السن بين أترابها، فتجدها امرأة مكتملة جسداً وعقلاً! وأزيدك بما يؤيد هذا الكلام، وهو أن محمداً ﷺ لم يكن الخاطب الأول

لعائشة، فقد سبقه إلى خِطْبتها آخرون! وأترك الفرصة لصاحبة الشأن - وهي التي لم تتذمَّر يوماً من هذا الزواج، بل كانت أسعدَ امرأة به - لتروي لنا قصة خطبة رسول الله لها:

قالت عائِشَةُ: لَمَّا ماتَتْ خدِيْجَةُ جاءتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيْمٍ، فقالت:

- يا رسولَ اللهِ! أَلا تَزَوَّجُ؟

قال: «ومَنْ». ؟

قالت: إِنْ شِئْتَ بِكراً، وإِنْ شِئْتَ ثَيِّباً.

قال: «مَنِ البِكْرُ، ومَنِ الثَّيِّبُ؟»

قالت: أَمَّا البِكْرُ؛ فعائِشَةُ ابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللهِ إِلَيْكَ، وأَمَّا الثَّيِّبُ؛ فَسَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ، قَدْ آمَنَتْ بِكَ، وَاتَّبَعَتْكَ.

قال: «اذْكُرِيْهِمَا عَلَيَّ».

قالت: فَأَتَيْتُ أُمَّ رُوْمانَ، فقلتُ: يا أُمَّ رُوْمانَ! مَاذَا أَدْخَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الخَيْرِ والبَرَكَةِ؟

قالت: ماذا؟

قلتُ: رسولُ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ عائِشَةَ.

قالت: انْتَظِرِي، فَإِنَّ أَبا بَكْرٍ آتٍ.



فَجاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فقال: أَوَ تَصْلُحُ لَهُ وهِيَ ابْنَةُ أَخِيْهِ.

فقال النبيُّ ﷺ: «أَنا أَخُوهُ وهُوَ أَخِي، وابْنَتُهُ تَصْلُحُ لِي».

فَقامَ أَبُو بَكْرٍ، فقالتْ لِي أُمُّ رُوْمان: إِنَّ المُطْعِمَ بنَ عَدِيٍّ كانَ قَدْ ذَكَرَها عَلى ابْنِهِ، ووَاللهِ ما أُخْلِفُ وَعْداً قَطُّ.

قالت: فَأَتَى أَبُو بَكْرٍ المُطْعِمَ، فقال: ما تَقُولُ فِي أَمْرِ هَذِهِ الجارِيَةِ؟

قال: فَأَقْبَلَ عَلى امْرَأَتِهِ، فقال: ما تَقُولِينَ؟

فَأَقْبَلَتْ عَلى أَبِي بَكْرٍ، فقالت: لَعَلَّنا إِنْ أَنْكَحْنا هَذا الفَتى إِلَيكَ تُدْخِلُهُ في دِيْنِكَ.

فَأَقْبَلَ عَلَيهِ أَبُو بَكْرٍ، فقال: ما تَقُولُ أَنْتَ؟

قال: إِنَّها لَتَقُولُ ما تَسْمَعُ.

فَقامَ أَبُو بَكْرٍ، ولَيْسَ في نَفْسِهِ مِنَ المَوْعِدِ شَيْءٌ، فقال لَها: قُولي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَلْيَأْتِ.

فَجاءَ، فَمَلَكَها[١].





(١) رواه البيهقي في "السنن" ٧/ ١٢٩ .

شبهةٌ واهية والردُّ عليها: رحمته بالنساء ليست إلا شهوةً عارمة!

والشيء بالشيء يذكر، فإنَّ من الشبهات التي أثارها خصوم محمد عن حياته الزوجية، أنه كان توَّاقاً للنساء، شغوفاً بهنَّ، قد أسَرْنَ لبَّه وعقله، وقد أكثر منهنَّ حتى بلغْنَ اثنتا عشرة زوجة، وأن هذا الذي تسميه رحمةً بالنساء ليس إلا شهوةً عارمة مكبوتة تستعر في صدره!، ولا شك أن من يقول هذا لا حظَّ له من المعرفة بسيرته ﷺ، وليس له أدنى علم بمعيشته وطريقة حياته عليه الصلاة والسلام.

ونلخِّص الإجابة عن هذه الشبهة فيما يأتي:

أولاً: ليس حبُّ النساء والميل إليهنَّ عيباً في الرجل، بل إنَّ مما يُمتدح به الرجل فحولته، ولو قيلَ: إن محمداً كان عِنِّيناً مثلاً لكان ذماً يَعيبه ونقصاً يلحقه - حاشاه -، أما أن يقال: إنه يحبُّ النساء، فإنه في نظري مدح لا قدح، فكلُّ الرجال الأسوياء يحبون النساء!. ثمَّ ما بالُ هؤلاء الخصوم يتخذ واحدهم الأَخْدان والخليلات بالعشرات بالسرِّ والعلن خارج نظام الزواج، ثم ينكر على محمد تعدد الزوجات تحت مظلة الحياة الأسرية الكريمة التي تُكفَل فيها الحقوق، وتُصان الكرامة، وتحفظ الأبدان والأديان؟! لماذا

يبيحون لأنفسهم من الحرام الخبيث الآسن ما يحرمونه على غيرهم من الحلال الطيب النظيف؟.

وأمرٌ آخر أحب أن ألفت نظرك إليه، وهو أن الإسلام لا يستقذر الجنس، ولا ينظر إليه على أنه رجسٌ، كما هو الشأن في بعض المذاهب والديانات التي تفرض الرهبانية، وتحرم الزواج، فالحياة الجنسية في الإسلام حياة طيبة فاضلة، قد ارتقى بها الإسلام إلى درجة العبادة، نعم العبادة، فالمسلم وهو يمارس الجنس مع زوجته يكون في عبادة، ويحتسب له أجرها، فهل تجد مثل هذا السموِّ بالعلاقة الجنسية في دينٍ آخر؟. عن أبي ذر: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور! يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهم. قال: «أوَ ليس قد جعل الله لكم ما تَصَدَّقون؟ إن بكلِّ تسبيحة صَدَقة، وكلِّ تكبيرة صَدَقة، وكلِّ تحميدة صَدَقة، وكلِّ تهليلة صَدَقة، وأمرٌ بالمعروف صَدَقة، ونَهيٌ عن مُنكر صَدَقة، وفي بُضْع أحدكم صَدَقة (أي الجماع)». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتُم لو وَضَعَها في حَرام أكان عليه فيها وِزْر؟ فكذلك إذا وَضَعَها في الحَلال كان له أجر»[١].

(١) رواه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذَر الغِفاري.

يقول الإمام النووي في شرحه على مسلم: «فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حقِّ الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف زوجته، ومنعهما جميعًا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة».

«إن الإسلام لا يرفض الحياة الجنسية، لأنه يدعو إلى الحياة الطبيعية وسعادة الحب، بقدر ما يدعو إلى صحَّة البدن والقوة والشجاعة والجهاد وكسب المال، ولأنه يعارض الإعراضَ عن الدنيا كما يعارض الإسرافَ فيها. يطالبنا الإسلام بجني (الثمار السماوية) إضافة إلى (الثمار الأرضية) ويسمح للإنسان أن تمتدَّ يداه - اللتان رفعتا إلى الله متذللتين بالدعاء قبل قليل - نحو مسَرَّات الدنيا. ولا تعلمنا الآداب الإسلامية الإلحاح في ذكر المحَرَّمات، لأن الإسلام لا يسعى لإقامة جدار يحوط جميع الأنهار التي يمكنها إرواء العطش، ولا يطالب الإسلام بالقضاء على الشهوات، بل يطالب بالسيطرة عليها. ولا يسعى لقطع الشهوة الجنسية، لكنه يضع لها الضوابط والحدود»[1].

(١) مجلة المجتمع، العدد ١١٠٩، المرأة بين المجتمع الإسلامي والمجتمع الغربي، علي عزت بيغو فيتش.

ثانياً: إن التعدد في الزواج ليس مما يعاب به الأنبياء، وقد عدَّد الأنبياء قبل محمد ﷺ، فإبراهيم عليه السلام تزوج سارة ثم هاجر، ويعقوب عليه السلام تزوج بأربع نسوة، وداود عليه السلام تزوج بأكثر مما تزوج رسول الله، بل يتهمه العهد القديم بأنه - حاشاه - زنى بامرأة أوريا وقتل زوجَها بالحيلة، ثم أخذها[١]، وتزوج سليمان عليه السلام بألف امرأة، سبع مئة منهن حرائر من بنات السلاطين، وثلاث مئة جوارٍ[٢] كما هو مصَرَّح به في الباب الحادي عشر من سِفْر الملوك الأول.

ثالثاً: إن التعدد لم يكن مما يعاب عند العرب، وكان سُنةً جارية في حياتهم، وعندما حصر الإسلام التعدد في أربع، كان الرجل يأتي رسول الله ﷺ، فيقول: عندي ست زوجات أو تسع أو عشر أو أكثر، فبم تأمرني؟. فيأمره بأن يمسك أربعاً منهن ويُسرِّح الأخريات! ولو لم يكن التعدد شائعاً عندهم لاتخذوا تعدُّد الرسول مطعناً، ولم يرد ذلك على لسان أحدٍ منهم.

رابعاً: إن زواجه ﷺ، لم يكن بهدف التمتُّع وإشباع الشهوة، وإن كان ذلك أمراً فطريًّا سائغاً لا يعاب الإنسان

(١) العهد القديم، سِفْر صموئيل الثاني، الباب الحادي عشر. انظر: "إظهار الحق" ص ٤٧٣ .

(٢) "إظهار الحق" ص ٥٠٥ وما بعدها.

به، وقد كان تعدد الزوجات سائداً بين العرب آنذاك بلا حد - كما قدَّمت -، ومع ذلك فإن هدف الرسول ﷺ من زواجه كان أسمى من ذلك وأعلى، إذ أراد بتعدد الزوجات تحقيق غايات شريفة، ومراعاة مصالح عظيمة اقتضتها طبيعة الرسالة وضرورة الدعوة؛ فالزواج يوثق عرى الترابط الأسري، ويمدُّ في رقعة الصلات الاجتماعية؛ لتنتشر الدعوة، وتفتَّح الأبواب والطرق، ليبلِّغ الرسول الرسالة.

ومن المصالح تأليف قلوب الخصوم، كزواج محمد ﷺ برَمْلَة بنت أبي سفيان زعيم قريش آنذاك وخصمه اللدود، الذي سُرَّ بهذا الزواج برغم العداوة المشتعلة بينهما.

وزواجه بجُوَيرية بنت الحارث زعيم بني المُصْطَلِق، كان برَكةً على قومها بعد أن لحقت بهم هزيمة نكراء، ومفتاحاً لقلوبهم لينفذ إليها نور الإسلام. وزواجه بصَفيَّة بنت حَيِيٍّ بن أخطب بنت أحد سادة اليهود، التي وقعت أسيرة حرب في سهم جندي، فقيل لرسول الله ﷺ: إنها لا تصلح إلا لك!، ورقَّ لها رسول الله، ووهبها حريتها، واتخذها حليلة له تقديراً لمنزلتها في بني قومها وتطييباً لخاطرها، فهل في فعله ﷺ ما يلامُ عليه؟.

ومن المقاصد الشرعية أيضاً لزواج النبي، الإحسان إلى

أصحابه من ذوي السبق في الجهاد والدعوة معه، فقد تزوج أرملة صاحبه الوفي أبي سَلَمة بعد أن قضى نحبه، وخَلَّفها وراءه دون عائل، فضمها رسول الله ﷺ إليه؛ عطفاً عليها، وتقديراً لتضحياتها الجِسام، فهي رمز من رموز مأساة الهجرة.

ومن أعظم المصالح إطلاقاً المصلحة العلمية، وهي نقل أحوال النبي ﷺ كافةً في حِلِّه وترحاله، وبخاصة حياته الأسرية بتفصيلاتها الكثيرة الدقيقة حتى الخاص منها، مما لا يستطيع رجلٌ واحد ولا امرأة واحدة نقله أو حصره، وذلك لأن رسول الله قدوة للناس في سائر أحواله، ويدخل في هذا المقصد تعليم النساء أمور دينهن، ونحو ذلك مما فيه مصلحة عامة. وقد كان لأمهات المؤمنين دور بارز في تعليم الناس وإرشادهم، وبخاصة السيدة عائشة الفقيهة العالمة التي كانت تستدرك على الصحابة، وحققن هدفاً أساسياً من أهداف زواجه ﷺ.

خامساً: ومن هذا القبيل زواج الرسول الكريم ﷺ بزينبَ بنت جحش، فإنه من أقوى الردود على الشبهة، فقد كان هذا الزواج مَغْرَماً لا مغنماً، وامتحاناً ثقيلاً لمحمد، لم يكد يقدم عليه من شدة حيائه وتحَرُّجه وخشية الأذى من قريش، لولا أن الله أمره به؛ لإبطال التبنِّي، وكان تقليداً شائعاً عند

العرب، فمنعه الإسلام لما يترتب عليه من الكذب والتزوير وضياع الحقوق، لكن كيف جاء التحريم؟ كان محمدٌ ﷺ نفسه قد تبنَّى مولاه زيد بن حارثة، ونسبه إليه، حتى كان يدعى بين القوم زيد بن محمد، وكان ذلك قبل البعثة، فأعتقه، وبعد أن بُعث زوَّجه قريبته زينبَ بنت جحش، على كرهٍ منها، فهي حرةٌ من ذؤابة قريش، وهو مولى!، ولذلك فشلت هذه العلاقة الزوجية، وتدخَّل رسول الله لإصلاح ذات البين مراراً.. ليفاجأ بعد ذلك بالوحي يأمره بترك زيدٍ وشأنه في تطليق زينب، لأن الأمر سيؤول إلى أن يتزوج هو بها؛ لإبطال عادة التبني، وليعلمَ الناس أن أدعياءهم ليسوا أبناءهم، وكان مثل هذا الزواج محرَّماً في أعراف الجاهلية وقوانينها، فاعترى رسولَ الله ﷺ همٌّ وقلقٌ، وساوره الخوف من لغط الناس عندما يرون نظام التبنِّي الذي أَلِفوه ينهار أمام أعينهم، وما سيقولونه عنه: محمدٌ تزوج بزوج ابنه!. ومن شدة تحرجه وحيائه من الموقف، وخشيته من حربٍ إعلامية مرتقبة، أخفاه في نفسه رجاء أن يعفيه الله منه، بل كان زيد يأتيه يشكو امرأته، ويستأذنه في طلاقها، فينهاه عن ذلك، ويقول له: «أمسك عليك زوجَك»! لكن الله سبحانه لم يُعفِ نبيه من هذا التكليف الثقيل، بل عاتبه ولامه على تردده، وحضَّه على إنفاذ أمر الله سبحانه بإنفاذ رغبة زيد بتطليق

زينب، ومن ثمَّ يتزوجها، وإن قالت العرب: إن محمداً تزوج حليلة ابنه أو مطلقته! لأن زيداً ليس بولده، والتبني تقليدٌ باطلٌ وعرفٌ جاهليٌّ يجب هدمه، وإعلان هدمه سيتم أمام الأشهاد، ولا يهدمه قولٌ، وإنما يبطله رسول الله نفسه بزواجه بزينب؛ لأن زوجها السابق إنما هو زيد بن حارثة، وليس زيد بن محمد، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (١). عندئذٍ لم يجد رسول الله ﷺ مفراً من تنفيذ التكليف الإلهي. وقد نَفَذَت عائشة إلى لبِّ الحقيقة عندما قالت: «لو كتم رسول الله شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية!» تقصد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (٢)، وهذا من أظهر دلائل النبوة.

سادساً: إن مما يؤكد لك أنَّ زواج محمد لم يكن من باب التوسع والسَّرَف في الشهوة والتمتع على عادة الملوك قديماً، أنه ﷺ لم يتزوج بِكْراً إلا زوجة واحدة، وهي عائشة، وغالب من يكون التمتع هدفه يحرص على الأبكار،

(١) الأحزاب: ٤٠.
(٢) الأحزاب: ٣٧.

بل إنَّ محمداً نفسه حضَّ جابر بن عبد الله على زواج البِكْر، فقال له: «هلَّا تزوجت بِكْراً تلاعبها وتلاعبك»[١]. فما باله يرغِّب بالأبكار وينكح الأرامل؟ أيفعل ذلك طالبُ شهوة أم صاحب دعوة؟ ثم إنَّ مما لا ينبغي أن تغفل عنه أنه لم يعدد إلا بعد موت خديجة رضي الله عنها، وقد بلغ الخمسين من عمره، ومن أراد التمتُّع والشهوة فإنه يتزوج في الشباب؛ لأنه سنُّ القوة الجنسية العارمة، ثم تبدأ بالذبول! فما مكان الشهوة في حياة رجل عزف عنها وهو شاب، أيغرق فيها وهو شيخ؟ .

ونقول أيضاً: أين مكان الشهوة والمتعة في حياة رجل لم يسترح ساعة من عناء الجهاد والعمل، فالمهام العظيمة والأعمال الجليلة التي كان يقوم بها رسول الله ﷺ بعد البعثة، كانت تشغل وقته وجهده، ولم يُعرَف عنه أنه كان ينشغل بالنساء والمَلَذَّات عن تلك المهمات، فقد كان داعياً إلى الله لا يهدأ، ومجاهداً في سبيله لا يَفْتُر، ومعلماً للناس الخير، وحاكماً بينهم بالعدل، وعابداً يقوم حتى تتفطَّر قدماه، ويصوم حتى يظن أصحابه أنه لا يفطر، لكنه مع ذلك كله كان زوجاً مثالياً ناجحاً في إدارته لبيوته[٢].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٥٠٨٠)، ومسلم بعد الحديث (١٤٦٦) برقم (٧١٥)/ ٥٥ من حديث جابر بن عبدالله.

(٢) "فقه السيرة"، محمد الغزالي.

ثم هناك شاهدٌ آخر يدحض هذه الشبهة الواهية، فالمعهود بملوك المتعة وأمراء اللذة، أنهم يُغرقون مَحظِيَّاتهم من الجميلات في جوٍّ من المتع والمسَرَّات، ويغدقون عليهن من الهدايا والتحف والنفائس والأَعْطيات.. ويسرفون في المآكل والمشارب والملابس والمراكب.. لكننا نفاجأ بيُسْر حياة النبي ﷺ وزهده بالدنيا وزينتها، حتى أثّر الحصير في جَنبه الشريف، فرقَّ له عمر بن الخطاب حين رآه، فبكى، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يُبكيك؟»، فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه.. وأنت رسول الله! فقال له: «أما ترضى أن تكونَ لهم الدُّنيا ولنا الآخرة؟»(١).

لقد كانت بيوت محمد ﷺ غاية في اليُسْر والتواضع، ضيقة لا تكاد تتسع له ولزوجاته، خاوية مقفرة تفتقر إلى الضروريات فضلاً عن الكماليات. وكذلك الحال بالنسبة لطعامه وشرابه، حتى إنَّ نساءه سألنه ذات مرة زيادة النفقة، فخيرهنَّ بين البقاء معه والرضى بحياة الكَفاف التي اختارها لنفسه، وبين الطلاق، فاخترنه بلا تردُّد. وهذه زوجته عائشة رضي الله عنها تروي لعُروَة ابن أختها عن شظف العيش في بيوت الرسول الكريم ﷺ، تقول: «ابنَ أختي، إن كنا لننظُر

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩)/ ٣١ من حديث عمر.



إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أَهِلَّة في شهرين، وما أُوقدتْ في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ، فقلت: يا خالة ما كان يُعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء»[١]. بالله عليك هل هذه معيشة رجلٍ شهواني يَنْشُد اللذات ويعكف عليها، وهو قادرٌ لو شاء أن يعيش عيشة الملوك، وبخاصة بعد أن توطَّدت أركان دولته واتسعت رُقْعتها، لكنه اختار حياة الكَفاف، ليس تحريماً للطيبات، فالإسلام يحلها، وينكر على من حرَّمها، ولكن مواساة لأصحابه، وكان جلهم من الفقراء، وحذراً من التعلق بالدنيا والاستغراق في اللذات والغفلة عن الباقيات!؟. ثمَّ لو كانت النساء الجميلات غاية محمدٍ ﷺ وما يصبو إليه، لقَبِل عرض قريش في أول طريقه إذ عرضوا عليه أن يزوِّجوه بأجمل بناتهم، وعرضوا عليه الملك والمال على أن يترك دعوته، فأبى ذلك كلَّ الإباء! وقد تنبه الفيلسوف الإنكليزي توماس كارليل إلى فساد مثل هذه الشبه، وشهد لمحمدٍ بالنزاهة والعفَّة والطهارة، فقال: «وما كان محمد أخا الشهوات، برغم ما اتُّهِم به ظلماً وعدواناً. . .ونخطئ إذا حسبناه رجلاً شهوانياً لا همَّ له إلا قضاء مآربه من المَلَذَّات». وهكذا - عزيزي القارئ - نجد

(١) متفق عليه، البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢)/ ٢٨ .



أن هذه الشبهةَ داحضة، لا ينهض بها دليل من عقل ولا واقع، وهي ساقطةُ الاعتبار من كل وجه، ولا تأثير لها في شخصية كملت من جوانبها كافة.



رحمته ﷺ بناته:

وإذا كان أهل الجاهلية يكرهون البنات، ويتشاءمون بهن، حتىٰ تبلغ الغِلظة والقسوة مداهما أحياناً بوأدهن، فإن رسول الرحمة ﷺ يحب بناته، ويحسن إليهن، ويتواضع لهن، ويعطف عليهن، ويرق لهن، حتى وهو في صلاته بين يدي ربه سبحانه، وصلاة المسلمين يحرم فيها الكلام أو العبث! يحدثنا أبو قتادةَ قال: خرجَ علينا النبيُّ ﷺ وأُمامَة بنتُ أبي العاص على عاتِقه، فصلى، فإذا ركعَ وضعها، وإذا رفعَ رفعَها[1]. ومن ألطف أخباره وأرقِّها ما رواه لنا عليٌّ صهره: أن فاطمة ابنة رسول الله رضي الله عنها اشتكت ما تلقى من الرَّحى مما تطحن، حتى أثَّر في يديها، فبلغها أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بسَبْيٍ (رقيق)، فأتته تسأله خادماً، فلم توافقه (تصادفه)، فذكرت لعائشة حاجتها، فجاء النبي ﷺ فذكرت ذلك عائشة له، فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا (أي

(١) رواه البخاري (٥٦٥٠).

اضطجعنا في فراشنا لننام)، فذهبنا لنقوم، فقال: «على مكانكما»، فجاء فقعد بيني وبينها، حتى وجدتُ برد قدميه على صدري، فقال: «ألا أدلكما على خَير مما سألتُماه؟ إذا أخذتُما مَضاجِعَكُما فكبِّرا الله أربعاً وثلاثين، واحْمَدا الله ثلاثاً وثلاثين، وسَبِّحا ثلاثاً وثلاثين، فإن ذلك خيرٌ لكما مما سألتماه»[١]. لكن لِمَ لَمْ يعط محمدٌ ابنته فاطمة خادماً؟ وهنا تبرز عظمة رسول الله، فهو لا يؤثر بناته ولا زوجاته على نساء المسلمين بشيء، ليس لقسوة في قلبه، فهو - كما رأيناه في تفاصيل القصة - يفيض رحمة وحباً وحناناً وشفقة، ولكنه التوازن الذي حدثتك عنه، فإنَّ كثيراً من أصحاب المكانة والنفوذ تحمله الشفقة على أولاده وأقاربه إلى إيثارهم وتفضيلهم على سائر الناس.

وهذه قصة أخرى تظهر رأفته ببناته، ولكنها في الوقت نفسه تؤكد أن العاطفة لم تكن لتميل به عن الجادَّة. عن السيدة عائشة أن أبا العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ كان فيمن شهد بدراً مع المشركين، فأسره عبد اللّه بن جُبَير ابن النعمان الأنصاري، فلما بعث أهل مكة في فداء أساراهم قدم في فداء أبي العاص أخوه عمرو بن الربيع، وبَعثت معه زينبُ بنت رسول الله ﷺ، وهي يومئذ بمكة،

(١) متفق عليه، البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧).

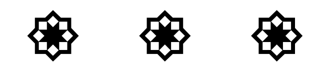
بقلادة لها، كانت لأمها خديجة بنت خويلد، فأدخلتها عليه بتلك القلادة، فبعثت بها في فداء زوجها أبي العاص، فلما رأى رسول اللّه ﷺ القلادةَ عرفها، فرقَّ لها، وترحَّم على خديجة، وقال: «إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرَها، وتردُّوا عليها متاعَها فافعلوا!»، قالوا: نعم يا رسول اللّه، فأطلقوا أبا العاص، وردوا على زينب قلادتها، وأخذ النبي ﷺ على أبي العاص أن يخليَ سبيلها إليه، فوعده وفعل[١].

وكان ﷺ يحضُّ على تربية البنات عمومًا ورعايتهن، ويبشِّر من يحسن إليهنَّ بالأجر العظيم، عن عائشةَ زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: جاءتني امرأةٌ معها ابنتانِ تَسألني، فلم تجدْ عندي غيرَ تمرةٍ واحدة، فأعطيتها، فَقَسَمَتْها بينَ ابنتيها، ثم قامت فخرَجَت، فدخلَ النبيُّ ﷺ فحدَّثته، فقال: «من يَلي من هذهِ البناتِ شيئاً فأحسَن إليهنَّ كنَّ له سِتراً من النار»[٢]. وتذكَّر أن هذه التعاليم يُخاطِبُ بها مجتمعاً كان يكره البنات إلى حد الوأد!. ومن عجيب رقته ورأفته ﷺ أنه كان يقف للصلاة يريد إطالتها، فيسمع بكاء طفل في أثنائها يكون برفقة أمه التي تصلي مع رسول الله صلاة الجماعة؛ فإذا به يخفِّف

(١) رواه أبو داود (٢٦٩٢).
(٢) رواه البخاري (٥٦٤٩).



صلاته ويتَجوَّز فيها؛ شفقة على الطفل وأمه، يقول: «إني لأَدخُلُ الصَّلاةَ أريد إطالتها، فأسمَعُ بكاء الصبيِّ فأخفف من شدة وَجْد أمه به»[١].



٣- رحمته ﷺ بالأرامل واليتامى:

كان النبيُّ محمد يحث على رحمة الأرامل والمساكين ورعاية من لا راعيَ له، فيقول ﷺ: «الساعي على الأرمَلَةِ والمسكين كالمجاهدِ في سَبيلِ الله، كالقائم لا يَفتُر، وكالصائم لا يُفطِر»[٢]، فكافل الأرملة والمسكين كالمجاهد سواءً بسواء، والجامع بينهما الرحمة، فالمجاهد أيضاً رسالته وغايته التي خرج من أجلها (رحمة للعالمين) وإنقاذ الناس وتخليصهم من الجَوْر والظلم.

رحمته باليتامى:

وشَمِلَت رحمته اليتيم، ومَنْ أولى بها منه، وحضَّ على كفالة الأيتام وإيوائهم، وهو الذي ذاق مرارة اليُتْم، إذ حُرِم ﷺ من أبويه، فلم تكتحل عيناه برؤية أبيه، ثم لم يلبث أن

(١) متفق عليه، البخاري (٧٠٩)، ومسلم (٤٧٠) من حديث أنس.
(٢) متفق عليه، البخاري (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٩٨٢) من حديث أبي هريرة.



فقد أمه بُعَيد فطامه، فآواه ربه سبحانه ورعاه، وامتنَّ عليه بهذه النعمة قائلاً: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾[(١)]، وأمره بشكر النعمة بألا يقهر يتيماً أو يظلمه، وأن يجبر كسر قلبه. عن سهْلِ بن سَعدٍ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «أنَا وكَافِلُ اليَتِيم في الجَنّةِ كَهاتَيْنِ، وأَشارَ بإِصْبعَيْهِ يَعْني السَّبَّابَةَ والوُسْطَى»[(٢)].

ومن أخباره ﷺ في هذا الجانب، أنه عندما قُتِل جعفر بن أبي طالب أمهل آل جعفر ثلاثاً، ثم أتاهم فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم». ثم قال: «ادعوا لي بني أخي». فجيء بنا كأنَّا أفرُخ فقال: «ادعوا لي الحلاق» فأمره فحلق رؤُوسنا[(٣)]. ثم لما رجع رَسُول اللهِ ﷺ إلى أهله، قال لهم: «إن آلَ جعفر قد شُغلوا بشأن مَيتهم، فاصنَعُوا لهم طعاماً»[(٤)].



٤- رحمته ﷺ بالخَدَم والعبيد:

وتعال لنستمع إلى خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه يحدثنا عن رحمته وشفقته ولينه وعطفه وحنانه، وإن شهادة الخادم لصادقة، وبخاصة أنس الذي خدمه تسع سنين، وكان معه

(١) الضحى: ٦ . (٢) رواه البخاري (٤٩٩٨).

(٣) رواه أبو داود (٤١٩٢) من حديث عبدالله بن جعفر.

(٤) رواه ابن ماجه (١٦١١) من حديث أسماء بنت عُمَيس.



كظِلِّه، في سائر أحواله، في حضره وسفره، وصحته ومرضه، وشبعه وجوعه، وبتقَلُّب الأحوال تُختَبَر أخلاق الرجال، عن أنس بن مالكٍ، قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً، فَأَرْسَلَني يَوْماً لِحَاجَةٍ. فقلتُ: واللهِ لا أذهبُ، وفي نَفسي أَنْ أذهبَ لِما أَمَرَني بِهِ نَبيُّ اللهِ ﷺ، فَخَرَجتُ حَتّى أَمُرَّ عَلى صِبيَانٍ وهُمْ يَلعَبُونَ في السُّوقِ، فإذا رَسُولُ اللهِ ﷺ قد قَبَضَ بِقَفايَ مِنْ وَرائِي، قال: فَنَظرتُ إِلَيهِ وهُوَ يَضْحَكُ، فقال: «يا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» قلتُ: نعم، أنا أذهبُ، يا رسولَ اللهِ. قال أنسٌ: واللهِ لقد خَدَمتُهُ تِسْعَ سِنينَ، ما عَلِمتُهُ قال لِشَيءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذا وكَذا؟ أو لِشَيءٍ تَرَكتُهُ: هَلّا فَعَلتَ كَذا وكَذا[(١)]. ويقول أنسٌ أيضًا: فما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيَّعته فلامني أحدٌ من أهل بيته إلا قال: «دَعُوه، فلو قُدِّر أو قُضيَ أن يكونَ كان»[(٢)].

وكان يوصي أصحابه بالعفو عن الخادم. عن عبدالله بن عمر قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام فصمت. فلما كان في الثالثة قال: «اعفوا عنه في كلِّ يومٍ سبعين مرَّةً»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٠).

(٢) رواه أحمد في "المسند" (١٣٤٤٢).

(٣) رواه أبو داود (٥١٦٤).



فإذا ضرب السيد عبده أو مملوكه فكفَّارته عتقه. كان لدى بني مُقرِّن خادمة، فلطمها أحدهم، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ باكيةً، فاستدعى الرسول ﷺ مالكَها قائلاً له: «أَعتِقوها»، فقالوا: ليس لهم خادم غيرها. قال: «فليستخدموها، فإذا استَغْنَوا عنها، فليخلُّوا سبيلها»(١). والقصة نفسها يرويها معاوية بن سويد، قال: لطمتُ مولى لنا فهربت، ثم جئتُ قبيل الظهر فصليت خلف أبي، فدعاه ودعاني، ثم قال: امتثل منه (اقتصَّ منه). فعفا. ثم قال: كنا، بني مقرن، على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا إلا خادمٌ واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «أعتقوها». قالوا: ليس لهم خادمٌ غيرها. قال: «فليستخدموها فإذا استَغْنَوا عنها فليُخَلُّوا سبيلَها». وعن هلال بن يِساف قال: كنا نزولاً في دار سويد بن مُقرِّن، وفينا شيخ فيه حِدَّةٌ ومعه جارية له، فلطم وجهَها، فما رأيت سويداً أشدَّ غضباً منه ذاك اليوم. قال: عَجَزَ عليك إلا حُرُّ وجهها؟ لقد رأيتنا سابع سبعةٍ من ولد مقرِّن وما لنا إلا خادم، فلطم أصغرنا وجهها، فأمرنا النبيُّ ﷺ بعتقها.



(١) رواه مسلم (١٦٥٨).

رحمته ﷺ بالعبيد:

هل تعرف آخر كلمات تفوَّه بها الرسول الكريم ﷺ وهو يجود بنفسه وقد حضره الموت؟. عن عليٍّ قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»(١). إنه يوصي بالعبيد، وهو يعالج سكرات الموت!. وعن المعرور قال: لقيت أبا ذَرٍّ بالرَّبَذَة، وعليه حُلَّة (إزار ورداء)، وعلى غلامه (عبده ومملوكه) حُلَّة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابَبت رجلاً فعيَّرته بأمه (قال له: يا بن السوداء)، فقال لي النبيُّ ﷺ: «يا أبا ذر، أعيَّرتَه بأمه؟! إنك امرؤٌ فيك جاهلية (خصلة من خصال الجاهلية، وهي التفاخر بالآباء)، إخوانكم خَوَلُكُم (العبيد والخدم هم إخوانكم في الدين أو الآدمية)، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليُطعِمْه مما يأكل، وليُلبِسْه مما يَلبَس، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم»(٢)، وفي رواية أخرى قال: «إنهم إخوانكم فضَّلكم الله عليهم، فمن لم يُلائمكم فبيعوه، ولا تعذِّبوا خلقَ الله»(٣).

وقد رغَّب الإسلام بتحرير العبيد، ويسمَّى العتق، عن سعيد بن مَرْجانة، صاحب علي بن حسين، قال: قال لي أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «أيما رجل أعتق امرأً مسلمًا،

(١) رواه أبو داود (٥١٥٦).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١)/ ٤٠ .

(٣) رواه أبو داود (٥١٥٧).



استنقذ الله بكلِّ عضو منه عضواً منه من النار»[١]. قال سعيد ابن مرجانة: فانطلقت به (أي بالحديث) إلى علي بن حسين، فعمد علي بن حسين رضي لله عنهما إلى عبدٍ له، قد أعطاه به عبد الله بن جعفر عشرة آلاف درهم، أو ألف دينار، فأعتقه. وعن أبي مسعود الأنصاري قال: «كنت أضرب غلاماً لي، فسمعتُ من خلفي صوتاً: «اعلم أبا مسعود - مرتين - للَّهُ أقدَرُ عليك منك عليه!». من صاحب هذا الصوت؟. يقول أبو مسعود: فالتفتُّ فإذا هو النبيُّ ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هو حرٌّ لوجه الله تعالى. قال: «أما إنك لو لم تفعل للفَعَتْكَ النار -أو لمستك النار-»[٢].

ولربَّ قائلٍ يقول: عجبتُ لرحمة محمدٍ بالعبيد والمماليك، وحسن معاملته لهم، وحفظه لحقوقهم، لكن لماذا أقرَّ الرق، ولم يُلغه إلغاءً كاملاً!؟. والرد بإيجاز أن الإسلام يكره الرقَّ ويجفف منابعه، ويحب العتق، ويشجع عليه، ويفتح أبوابه، ويرغِّبُ أتباعه فيه بل يلزمهم به في كثيرٍ من كفَّارات الذنوب، من مثل كفارة الظِّهار واليمين والقتل وسواها. والذنوب لا تنتهي، فالكفارات بابٌ مفتوحٌ من أبواب العتق. ولم يكتف بذلك بل حضَّ على العتق، حتى

(١) متفق عليه، البخاري (٢٥١٧)، ومسلم (١٥٠٩)/ ٢٤ .
(٢) رواه أبو داود (٥١٥٩).



قال ﷺ: «من أعتق رقبةً مسلمة أعتق الله بكلِّ عضو منه عضوًا من النار حتى فَرْجَهُ بفَرْجِهِ»(١).



٥- رحمته ﷺ بالمَرضى والمَعوقين:

وشَمِلَتْ رحمته ﷺ حتى المَعوقين عقلياً، فعن أَنَسٍ أَنّ امرَأَةً كانَ في عَقْلِها شَيءٌ، فقالت: يا رسولَ اللّهِ إنّ لي إِلَيكَ حَاجَةً! . فقالَ: «يا أُمّ فُلانٍ، انظري أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حاجَتَكِ» فَخَلَا معها فِي بَعضِ الطّرُقِ، حَتّى فَرَغَتْ مِنْ حاجَتِها(٢). فهذه أخلاق نبينا محمد ﷺ .

وفي حادثة أخرى عَبَسَ الرسول محمد ﷺ في وجه رجل أعمى جاءه يسأله عن أمرٍ من أمور دينه، وكان يجلس إلى رجالٍ من رؤساء قومه، يستميلهم إلى دينه، ويطمع بإسلامهم، فلم يتركه ربه سبحانه - برغم أن الأعمى لم يرَ عبوسه، ولم يفطن إليه -، وأنزل عليه آيات من القرآن تعاتبه. أما الآيات فهي في سورة تسمَّى (عَبَسَ)!، يقول الله فيها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾

(١) متفق عليه، البخاري (٦٧١٥)، ومسلم (١٥٠٩)/ ٢٢ من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم (٢٣٢٦).

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾[1]. فهل يعقل أن تكون هذه الآيات من اختلاق محمد ﷺ؟ وهل يعقل أن يكون المرسل والمستقبل فيها ذاتاً واحدةً؟. وكيف يلوم محمدٌ نفسه هذا اللوم الشديد، وبصوتٍ مسموع؟. قد يلوم المرء نفسه سراً في خلوته، أما أن يلومَها جهارًا في آيات يتلوها أصحابه آناء الليل وأطراف النهار، فهذا لا يفسره إلا الإذعان والإيمان بظاهرة الوحي. ولها أشباه ونظائر عدَّها العلماء من دلائل النبوة لا مجال لسردها في هذه العجالة.

ومن الرحمة بالمَعوقين مراعاة الشريعة لهم في كثيرٍ من الأحكام التكليفية، والتيسير عليهم ورفع الحرج عنهم، فعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: «لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ». قال: فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها علَيَّ (أي يقرؤها عليه ليكتبها)، فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلاً أعمى، فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ، وفَخِذُه على فَخِذي، فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذي (من ثقل الوحي)، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله عز وجل: «غَيْرُ



(١) عبس: ١-١٢.

أُوْلِي الضَّرَرِ»[١]. وهذه الرخص الشرعية من تجليات الرحمة في التشريع الإسلامي، ومثلها كثير.



٦- رحمته ﷺ بالمتعلِّمين:

الرحمة بالمتعلمين والعلاقة الحميمة بين المعلم وتلاميذه شرطٌ ضروري لنجاح عملية التعليم، وهذا ما حقَّقه الرسول الرحيم، ونجح نجاحاً باهراً في استلاب قلوب أصحابه. ومن رحمته ﷺ في التربية والتعليم ما رواه لنا مُعاويَةُ بن الحَكَم السُّلَمِيّ قال: صَلّيتُ مع رسولِ الله ﷺ فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوم، فقلتُ: يَرْحَمُكَ الله، فَرمانِي القَومُ بِأبْصارِهِم، فقلتُ: وَاثُكْلَ أُمِّياهُ، ما شَأْنُكُم تَنْظُرونَ إلَيّ؟ قال: فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأيْدِيهِمْ على أفْخاذِهِمْ فعَرَفتُ أنّهُمْ يُصَمِّتُونَني، فَلَمَّا رَأيْتُهُمْ يُسكّتُونَني سكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رسولُ الله ﷺ - بِأبِي هو وأُمِّي - ما ضَرَبَني ولا كَهَرَني ولا سَبَّنِي، ثُمّ قال: «إنّ هَذِهِ الصّلَاةَ لا يَحِلُّ فيها شَيءٌ مِنْ كَلامِ النّاسِ هذا، إنّما هُوَ التّسْبِيحُ والتّكْبِيرُ وقِراءَةُ القُرْآنِ»[٢].

ومن غرائب أخباره في الرِّفق واللين والرحمة بالمتعلمين

(١) رواه البخاري (٢٦٧٧). والآية في سورة النساء: ٩٥ .
(٢) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠) واللفظ له.



قصة الأعرابي الذي بال في المسجد! عن أنس رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي[١] فقام يبول في المسجد وأصحاب الرسول ﷺ يصيحون به: مه مه! (أي اترك)، فقال رسول الله ﷺ: «لا تَزْرِموه دَعُوه!» (لا تقطعوا بوله)، فترك الصحابة الأعرابيَّ يقضي بوله، ثم دعا الرسولُ عليه الصلاة والسلام الأعرابيَّ، فقال له: «إن المساجدَ لا تصلح لشيء من هذا البول والقَذَر، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن». وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إنما بُعثتم مُيسِّرين ولم تبعثوا مُعسِّرين، صبُّوا عليه دلوًا من الماء». فقال الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً! فقال الرسول ﷺ: «لقد تَحَجَّرتَ واسعًا، (أي ضيقت واسعًا)»[٢].



٧- **رحمته ﷺ برعيته:**

كان الرسول ﷺ أقربَ إلى المؤمنين من أنفسهم وأولى بها منهم، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٣]. ويقول الرسول ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من

(١) هو ذو الخُوَيصِرَة اليماني رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه، البخاري (٢١٩)، ومسلم (٢٨٥).
(٣) الأحزاب: ٦.



أنفُسهم، فمن تُوفِّي وعليه دَيْنٌ فعَلَيَّ قَضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لوَرَثَتِه»[(١)]. ولا ريب أن كفالة الدولة لرعاياها، ورعايتهم مادياً ومعنوياً يعدُّ رحمة، لم نعرفها عند الدول والحكومات قديماً، وقد سبق بها محمد ﷺ الدولة الحديثة في هذا الجانب.

وإليك قصةَ جمل جابر مع نبي الرحمة، فهي تصلح شاهداً لرعاية الإمام لأصحابه ورعيته، وتفقده أحوالهم[(٢)]: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كنت مع النبيِّ ﷺ في سَفَر فكنت على جمل ثَفالٍ (بطيء) وإنما هو في آخر القوم، فمَرَّ بي النبيُّ ﷺ فقال: «من هذا؟». قلت: جابر بن عبدالله. قال: «ما لك؟». قلت: إني على جمل ثَفال. قال: «أمعك قَضيب؟». قلت: نعم. قال: «أَعْطِنيه». فأعطيته، فضربه فزجره، فكان من ذلك المكان من أول القوم. قال: «بِعْنِيه». فقلت: بل هو لك يا رسول الله. قال: «بعنيه قد أخذتُه بأربعة دنانير، ولك ظَهرُه إلى المدينة». فلما دنونا من المدينة أخذت أرتحل، قال: «أين تريد؟». قلت تزوجت امرأةً قد خلا منها. قال: «فهلّا جاريةً تلاعبُها وتلاعبُك». قلت: إن أبي توفي، وترك بنات فأردت أن أنكحَ امرأة قد جَرَّبت، خلا منها.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٢٢٩٨)، ومسلم (١٦١٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) "صحيح السيرة النبوية"، إبراهيم العلي، دار النفائس، الأردن، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ص ٣٧٣.

قال: «فذلك». فلما قدمنا إلى المدينة قال: «يا بلالُ اقْضِه وزِدْه». فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطاً![١].



٨- رحمته ﷺ بخصومه:

لقد تجاوزت رحمتُه كل حد، وفاقت الوصف، وغلبت غضبه، وأطفأت غيظه في أشد المواقف وأفظعها، كيف؟ عن عُرْوَة بن الزُّبَير أَنّ عائِشَةَ زَوْجَ النبيّ ﷺ حَدّثَتْهُ أَنّها قالت لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يا رسولَ اللهِ! هَل أتى عَلَيْكَ يَومٌ كان أَشَدَّ مِنْ يَوْم أُحُدٍ؟ فقال: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وكان أَشَدّ ما لَقِيتُ مِنهُم يومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابنِ عَبْدِ يَالِيلَ بنِ عَبْدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أَرَدتُّ، فانطَلَقْتُ وأنا مَهْمُومٌ على وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلّا بِقَرْنِ الثّعالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإذا أنا بِسَحابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرتُ فَإذا فِيها جِبْرِيلُ، فَنادانِي، فقال: إنّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وما رَدُّوا عَلَيْكَ، وقَدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتأْمُرَهُ بِما شِئْتَ فِيهِمْ. قالَ: فَنادانِي مَلَكُ الجِبالِ وسَلّمَ عَلَيَّ، ثُمّ قال: يا مُحَمّدُ! إنّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وأنا مَلَكُ الجِبالِ، وقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَما شِئْتَ؟ إنْ

---

(١) رواه البخاري (٢١٨٥).

شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ»، فقال لَهُ رسولُ اللّه ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»(١).

ونحو هذا أو قريب منه ما رواه أبو هريرةَ رضي الله عنه قال: قَدِمَ طُفَيلُ بنُ عمرو الدَّوسِيُّ وأصحابهُ على النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسولَ اللهِ إنّ دَوساً عَصَتْ وأبَتْ، فادْعُ اللهَ عليها، فرفع يديه فقيل: هلَكَتْ دَوسٌ. قال: «اللهمَّ اهدِ دَوساً وائْتِ بهم»(٢).

وعن عبدالله بن مسعود قال: لَمَّا قسم رسول الله ﷺ غنائم حُنَين بالجِعْرانة ازدحموا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إن عبداً من عباد الله بعثه الله إلى قومه فضَرَبوه وشَجُّوه، قال: فجعل يَمسَحُ الدمَ عن جَبهَته ويقول: رَبِّ اغفر لقَومي إنهم لا يَعلَمون». قال عبدالله: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح الدم عن جبهته يحكي الرجلَ ويقول: «ربِّ اغفر لقَومي إنهم لا يَعلَمون»(٣).

رحمته ﷺ بالمنافقين والمشركين:

كان النبي ﷺ رحمةً للمنافقين أيضًا إذ تجاوز عنهم،

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).
(٢) متفق عليه، البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).
(٣) رواه أحمد في "المسند" (٤٣٦٦).



برغم أنه كان يعرف دخائل نفوسهم وأضغان قلوبهم، حتى إنه أسرَّ بأسمائهم إلى أحد أصحابه حُذيفة رضي الله عنه، وخصَّه بذلك، وكان بوسعه لو شاء أن يفضحهم ويعاقبهم، ولكنه لم يفضح سرهم، ولم يهتك سترهم؛ رحمة بهم وتأليفاً لقلوبهم، رجاء أن يتوبوا ويرجعوا ويطهِّروا أنفسهم من النفاق. وكذلك كان محمد رحمة للكافرين؛ لأن الله سبحانه رفع عنهم العذاب بفضله ورحمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1]. فتأمل قَدْرَ النبي صلى الله عليه وسلم ومنزلته! وبرغم إيذائهم له واستهزائهم به ومحاولتهم قتله كان لا يدعو عليهم بل يدعو لهم رأفةً بهم، وكان يقول: «إني لم أُبعَث لعَّاناً، وإنما بُعثت رحمة»[2].

❁ ❁ ❁

٩- رحمته صلى الله عليه وسلم بالأُسارى:

قال ابن القيم في كتابه "زاد المعاد": «وهبط عليه فى صلح الحُدَيبية ثمانون متسلحون يريدون غِرَّته، فأسرهم ثم منَّ عليهم، وأسر ثُمامةَ بن أُثال سيد بني حنيفة فربطه بسارية المسجد ثم أطلقه فأسلم. واستشار الصحابة في أسارى بدر

---

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة.



فأشار عليه الصدِّيق أن يأخذَ منهم فدية تكون لهم قوة على عدوِّهم، ويطلقهم لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام، وقال عمر: لا والله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تُمكِّننا فنضربَ أعناقهم، فإن هؤلاء أئمةُ الكفر وصناديد قريش. فهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قال عمر. فلما كان من الغد أقبل عمر فإذا رسول الله ﷺ يبكي هو وأبو بكر فقال: يا رسول الله، من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدتُ بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرَضَ عَلَيَّ أصحابُكَ من أخذهم الفِداء؛ لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشجَرة». وأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]. وقد تكلم الناس في أي الرأيين كان أصوبَ فرجَّحتْ طائفة قول عمر لهذا الحديث، ورجَّحت طائفة قول أبي بكر لاستقرار الأمر عليه وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمةَ التي غلبت الغضب، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأَسْرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول

(١) الأنفال: ٦٧ . والحديث رواه مسلم (١٧٦٣).

القوة التي حصلت للمسلمين بالفِداء، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً، ولموافقة الله له آخراً حيث استقَرَّ الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصدِّيق فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخراً وغلَّب جانب الرحمة على جانب العقوبة»(١).



١٠- رحمته ﷺ بالحَيَوان والطَّير:

وإذا كان الأوربيون يتباهَون بالرفق بالحَيَوان، و يرعون القطط والكلاب، وهذا ليس عن رحمة، لكن من أجل اللعب والتسلية، وإلا فبم تفسر مثلاً مصارعة الثيران التي تُسفَك فيها دماء ذلك الحيوان المسكين؛ لاستجلاب المتعة إلى تلك القلوب الخاوية القاسية التي أفسدتها الحضارة الحديثة! أنا لا أدَّعي أن الرحمة نُزعت من قلوب الأوربيين، لكن ألا يدعو إلى التهمة وسوء الظن رفقهم المزعوم بالحَيَوان، وظلمهم ووحشيتهم مع بني الإنسان، وأقصد الإنسان في فلسطين والبوسنة والعراق وغوانتنامو وأخواتها! ألا يدعو هذا إلى سوء الظن بالرفق المزعوم؟

- نهيه ﷺ عن تعذيب الحَيَوان:

أخبر الرسول ﷺ أصحابه عن امرأة دخلت النار بسبب تعذيبها هِرَّة! فقال: «عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْها حتى ماتَتْ

(١) "زاد المعاد في هدي خير العباد"، ابن القَيِّم ٣/ ٩٩.

جوعاً، فدَخَلَت فيها النارَ، قال: فقال: لا أنتِ أطعَمْتِها ولا سقَيْتِها حينَ حبَسْتِها، ولا أنتِ أرسَلْتِها فأكَلَتْ من خَشاشِ الأرضِ»[١]. فهذا حقٌّ من حقوق الحيوان: توفير الطعام له، وعدم إيذائه.

- **رحمته ﷺ بالجَمَل:**

ودخلَ مرةً حائطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأنصارِ فإذا جَمَلٌ، فَلَمّا رَأى الجملُ النبيَّ ﷺ حَنَّ وذَرَفَتْ عيناهُ، فأتاهُ النبيُّ ﷺ فمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فقالَ: «مَنْ رَبُّ هذا الجَمَلِ (أي صاحب) لِمَنْ هذا الجَمَلُ؟» فجاءَ فَتًى مِنَ الأنصارِ فَقالَ: لِي يا رسولَ الله. قالَ: «أفَلا تَتَّقِي الله في هَذِهِ البَهِيمَةِ التي مَلَّكَكَ الله إيّاها، فإنّهُ شَكا إلَيّ أنّكَ تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ»[٢]. ومَرّ ﷺ ببَعِيرٍ هَزيل قد لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ من جُوعه، فقال: «اتّقُوا الله في هَذِهِ البَهائِم المُعْجَمَةِ، فارْكَبُوها صالِحَةً وكُلُوها صالِحَةً»[٣]. وهذا حقٌّ آخر من حقوق الحيوان، وهو حقُّه في الطعام والراحة، وألا يحمَّلَ فوق طاقته.

وكان ﷺ يحذِّر من اتخاذ الدوابِّ والحَيَوانات لغير الغرض الذي خُلِقت من أجله، فيقول: «إياكُم أنْ تَتّخِذُوا

---

(١) رواه البخاري (٢٢٣٦) من حديث عبدالله بن عمر.
(٢) رواه أبو داود (٢٥٤٩) من حديث عبدالله بن جعفر.
(٣) رواه أبو داود (٢٥٤٨) من حديث سهل بن الحنظلية.



ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنابِرَ، فإنّ الله إنّما سَخَّرَها لَكُم لِتُبَلِّغَكُم إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالغِيهِ إلّا بِشِقِّ الأنْفُسِ، وجَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فَعَلَيها فاقْضُوا حاجاتِكُم»(١). وهذا من الحقوق ألا تُتخذ منابرَ للخطابة، وألا يوقف عليها، لأنها لم تُخلق لذلك، أي لا يجوز استعمالها خارج وظيفتها وما سُخِّرت له، ولذلك حرم ديننا مناقرة الديوك ومناطحة الكباش ومثلها مصارعة الثيران التي تزدهر بطولاتها في إسبانيا.

- **رحمته ﷺ بالطَّير والنَّمْل:**

وشَمِلَت رحمته ﷺ الطير والنمل، فعن عبدالله بن مسعود قال: كُنّا مَعَ رسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ فانطَلَقَ لِحاجَتِهِ فَرَأينا حُمَّرَةً معها فَرْخانِ، فأخَذنا فَرخَيها. فجاءَتْ الحُمَّرَةُ فجَعَلَتْ تَفرُشُ، فجاءَ النبيُّ ﷺ فقال: «مَنْ فَجَّعَ هَذِهِ بِوَلَدِها، رُدُّوا وَلَدَها إليها». ورأى قَرْيَةَ نَمْلٍ قد حَرّقناها فقال: «مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟» قُلْنا: نحن، قال: «إنَّهُ لَا يَنْبَغِي أنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلَّا رَبُّ النَّارِ»(٢). وكان ذلك في سفر بل غزو، فأين هذا القائد البَرُّ الرحيم من قادة الجيوش الغابرة والمعاصرة الذين إذا

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٦٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داود (٢٦٧٥). وقوله (حُمَّرَة) نوع من الطير الصغار. (تفرش) بالفاء أي تبسُط جناحَها حول النبي ﷺ. وفي رواية (تعرِّش) بالعين أي: ترفرف بدنوٍّ من الأرض.

دخلوا قرية أفسدوها واستباحوا دماء أهلها وأموالها، ودَمَّروها تدميراً. هل يعرف الغرب أخلاق رسولنا الكريم وسيرته العطرة؟. ربما يعرفها بعض صالحيهم وعلمائهم، أما السواد الأعظم من الناس، فلا يعرفون شيئاً عنه، بل صوَّره لهم شياطينهم في صورة مرعبة مفزعة؛ تدعو إلى كراهيته، وتجاوز الحدِّ إلى الاستهزاء به! فمَن الملوم: هؤلاء الرَّعاع السُّذَّج، أم علماؤنا ودعاتنا ثم وسائل إعلامنا التي سلطت الضوء على سَقَط المتاع، وهجرت الرحمة المهداة؟. وعن عائِشَةَ، أنها رَكِبَتْ بَعِيراً، فكانت فِيهِ صُعوبةٌ، فَجَعَلَتْ تُرَدِّدُهُ، فقالَ لها رسولُ الله ﷺ: «عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ». وفي رواية: «يا عائِشَةُ إِنّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي على الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي على العُنْفِ، وما لا يُعْطِي على ما سِواهُ»[(١)].

- **الرحمة حين ذبح الحَيَوان:**

بل كان يأمر بالرفق والرحمة بالحَيَوان حتى وهو يُذبح، فهل عرفَتْ أمةٌ الرحمة حين الذبح؟ يقول ﷺ: «إنّ الله كَتَبَ الإحْسانَ عَلى كُلّ شَيْءٍ، فَإذا قَتَلْتُمْ فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وليُحِدَّ أحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) رواه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس.



- شبهةٌ وردُّها: ذبائح الأضاحي:

ديننا معتدل متَّزِن، وهذا الاتِّزان تراه في أخلاقياته، وبعض الناس يرى جانباً منها فيسيء الفهم، وكان ينبغي أن يفهمها كما جاءت في سياقها، وألا يغفل عن جوانب مقابلة تكمِّلها. وقد تعالت أصواتٌ بالنكير على المسلمين في موسم الحجِّ، واتهامهم بالقسوة والوحشية لأنهم يذبحون الأنعام بالجملة، يتقربون بهذا الذبح لتحصيل رضى الرب سبحانه! وهذا النقد قائم على الظلم والمغالطات، فالأضاحي شعيرةٌ دينية، وواجب من واجبات الحج، بقصد إغناء الفقراء وسد جوعهم، وقد بات جميع فقراء العالم الإسلامي اليوم يستفيدون من لحوم الأضاحي. والإسلام وإن كان ينادي بالرحمة بالحَيَوان، فإن هذا لا يقتضي تحريم ذبحها، لأنها خُلِقت لذلك، وتعدُّ غذاءً ضرورياً لحفظ صحة الإنسان. وجميع الأسوياء من بني البشر يتناولون لحومها، وكثيرٌ من الشواذ أصحاب الرحمة المُفْرطة، يمتنعون عن أكل لحوم الحَيَوانات رحمة بها! ولكنهم لا يتورَّعون عن سفك دم بني الإنسان!! أما نظام الإسلام فهو نظامٌ معتدل معقولٌ واقعي، ولا يقوم على العواطف المُجَنَّحة والخيالات المريضة!. وقد فطن إلى هذا الاتِّزان توماس كارلايل الكاتب الإنكليزي المعروف في كتابه: "الأبطال"، وقد عقد فيه فصلاً رائعًا

عن النبي ﷺ، قال فيه: «إني لأحبُّ محمدًا - ﷺ - لبراءة طبعه من الرأي والتصَنُّع. ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقلَّ الرأي لا يُعَوِّل إلا على نفسه، ولا يدَّعي ما ليس فيه، ولم يكن متكبرًا ولكنه لم يكن ذليلاً، فهو قائم في ثوبه المُرقَّع كما أوجده الله وكما أراده، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة. وكان يعرف لنفسه قدرها.. وكان رجلاً ماضيَ العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد..».

دخل الجنة رجلٌ في كلب:

وإذا كانت امرأةٌ دخلت النار في هِرَّة، فقد دخل الجنة رجلٌ في كلب، ماذا فعل ذلك الرجل؟ يقول ﷺ: «بينا رجلٌ يَمشي فاشتَدَّ عليه العَطَشُ، فنَزَلَ بِئراً فشَرِبَ منها، ثمّ خرَجَ فإذا هو بكَلْبٍ يَلْهَثُ يأكُلُ الثّرى مِنَ العَطَشِ، فقال: لقد بَلَغَ هذا مِثْلُ الذي بَلَغَ بي. فمَلأَ خُفّهُ ثمّ أمسَكَهُ بفيه، ثمّ رَقِيَ فسَقَى الكلْبَ، فشَكَرَ اللهُ لهُ فغَفَرَ له». قالوا: يارسول الله، وإنّ لنا في البهائِمِ أجْراً؟ قال: «في كلّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجر»[١].
ألا تعجب!

(١) متفق عليه، البخاري (١٣٧)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة.



بل الأعجب ما رواه أبو هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «بَيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغايا بَني إِسْرائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَها بِهِ»(١)، فهذه بَغِيٌّ، أي امرأة تمتهن الدعارة، تدخل الجنة برحمتها كلباً، فواعجباً!. وهذا الحديث لا يهوِّن من معصيتها، ولكنه يعظِّم من قدر عملها، فالرحمة تثقِّل الميزان.

- **رحمته ﷺ بالحمار:**

وإليك رحمته ﷺ بالحمار، نعم بالحمار، هذا الحَيَوان المسكين الذي يُسب ويُشتم، ويُضرب ويُجلد دون أن تأخذ الناسَ به شفقة، يدافع عنه نبيُّ الرحمة، ويقرر له حقوقه المادية والأدبية.. وَلْيَسمَع الظلمة الذين شَمِلَ جَوْرُهم وظلمهم الإنسان والحيوان والطير وسائر الدواب والهوام، وليتوبوا إلى الله توبة نصوحاً. عن جابرٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ مُرَّ عَلَيهِ بِحِمارٍ قَدْ وُسِمَ في وَجْهِهِ فقال: «أما بَلَغَكُم أنّي لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ البَهِيمَةَ في وَجْهِها، أو ضَرَبَها في وَجْهِها؟!». فنهىٰ عن ذَلِكَ(٢).



(١) متفق عليه، البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه أبو داود (٢٥٦٤).



الفصل الرابع

الرحمة في العقوبات والجهاد

المبحث الأول: الرحمة في العقوبات

المبحث الثاني: الرحمة في الحرب





الفصل الرابع:

الرحمة في العقوبات والجهاد

المبحث الأول: الرحمة في العقوبات

ربما يحلو لبعض الناس أن ينقضَ ما بنيناه بسهولة، فيقول لنا: ولكن قانون العقوبات في الإسلام يتعارض مع الرحمة، بل يتصف بالقسوة والغلظة؛ قتل، وقطع، وجلد، ونفي، وتغريم مال، وتعزير! وقد قطع محمد يدَ المرأة المخزومية التي سرقت، ورجم ماعزاً والمرأة الغامدية، وقطَّع أيدي وأرجل العُرَنيين، فأين الرحمة في ذلك؟!.

لا تروِّعنك هذه الشبهة فأمرها هيِّن، وتفنيدها يسير، فالإسلام في ضبط المجتمع لا يعتمد على العقوبات، لكنه يصلحه ويهذبه ويرتقي به بالتربية وتطهير النفوس، وغرس القيم والمُثُل، والوازع الديني الذي يتمتع بقوة ضبطٍ ذاتية لا يمكن أن يرقى إليها أي قانون وضعي. ويرافق التربية تطهيرُ المجتمع من مثيرات الجريمة التي تغري بها، ويحول دون نشوء ظروفها التي تنمو فيها، فيحارب الفقر والمرض والبَطالة والإثارة والظلم الاجتماعي، ثم بعد ذلك تأتي العقوبة ردعًا لمن تسوِّل له نفسه ارتكاب الجرائم وتهديد أمن

المجتمع والدولة، وهي إلى التهديد والزجر أقرب منها إلى إيقاع العقوبة، ذلك لأن الإسلام وضع شروطاً لإقامة الحدود والعقوبات بالغة الدقة؛ توخياً للعدالة ودرءاً للعقوبة ما أمكن، وهي مظهرٌ من مظاهر الرحمة أيضاً، ويمكنك أن تختبر حقيقة هذا الكلام بالرجوع إلى تاريخ القضاء في الإسلام، لتتحقَّق بنفسك من ندرة تنفيذ هذه العقوبات، ويمكنك أن تعدَّ على أصابع يدٍ واحدة الحدود التي نفذها الرسول ﷺ، وفي الوقت نفسه ستطَّلع على مجتمع ينعم بالأمن والعافية والازدهار. وبذلك تعلم أن هذه العقوبات التي شرعها الإسلام، تتوافق وتتناغم مع موجب أسماء الله وصفاته، من حكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وعدله، ومع الرحمة التي تمتع بها رسوله ﷺ؛ لتزول عن الناس النوائب والمكاره، وتنقطع الأطماع عن التظالم والعدوان، ويقتنع كل إنسان بما آتاه مالكه وخالقه؛ فلا يطمع في استلاب غيره حقه، وهذا يتسق تماماً مع وظيفة العقوبة، ألا وهي إقامة العدل وحماية المجتمع[(١)].

لكن المهم هو أن شفقته الواسعة، ورحمته الباهرة لم تكن لتحولَ بينه وبين تطبيق الحدود الشرعية؛ فكان يأخذ

---

(١) "العقوبة في الفقه الإسلامي"، أحمد فتحي بهنسي، دار الشرق، ط٥/ ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص ٢٣.

بقوة وحزم بوصية الله سبحانه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾[(١)].

ولم أجد شاهداً لهذا التوازن الدقيق المحكم أقوى من قصة المرأة المخزومية التي سرقت، فاغتمَّت قريش لها؛ لأنها ذات حسب ونسب وشرف، فكيف ينفذ عليها القانون؟ وأرادوا أن يشفعوا لها عند رسول الله، فقالوا ومن يكلم فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامة! فقال رسول الله ﷺ: «أتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدود الله؟». ثم قام فاختطب ثم قال: «إنما أَهْلَكَ الذين قَبلَكُم أنهم كانوا إذا سَرَقَ فيم الشَّريفُ تركوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضَّعيفُ أقاموا عليه الحَدَّ، وَايْمُ الله لو أن فاطمةَ بنت محمد سَرَقَتْ لقَطَعتُ يدَها»[(٢)]. والحديث يشير إلى أن القطع عقوبة قديمة جاءت بها الشرائع السابقة، ولم يخترعها الإسلام.

إن تنفيذ الحدود والعقوبات وإن كان فيه أذى لبعض الأفراد، لكنه رحمة بالعامة، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «وإذا كانت العقوبات بكل صورها أذى لمن تنزل به، فهي

(١) النور: ٢.
(٢) متفق عليه، البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة.



في آثارها رحمة بالمجتمع، ولسنا نريد بالرحمة تلك الشفقة التي تنبعث من الانفعال النفسي، بل نريد الرحمة العامة بالناس أجمعين، التي لا تفرِّق بين قبيل وقبيل ولا جنس وجنس..، وهي الرحمة التي نزلت من أجلها الشرائع السماوية، وحاول ابن الأرض أن يحقِّقها فتقاصرت همته دون ذلك، بسبب ما توارثه من الأحقاد والحسد مما اصطبغت به القوانين التي سَنَّها البشر. أما شرائع السماء فإنها تنزل من عند رب البرية الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء. وليس من الرحمة الرفقُ بالمجرمين، ولا الشفقة عليهم، بل الرأفة بهم قسوةٌ بالمجتمع بأسره، فالرحمة هي الرحمة بالكافة، وينبغي التفريق بين الرحمة وبين انفعالاتنا النفسية. فالرحمة تتجلى في تحقيق العدل، ولا رحمة في ظلم أو إقرار باطل، ولا نقصد التحرُّر من الرحمة الخاصة، لكن إذا تعارضت العاطفة مع العدل وجب تقديمه على الرحمة»[١].

ولا يليق بك أن تكون عجولاً في الحكم، قاصر النظر، كأولئك الذين يطعنون في الإسلام، ويتهمون نظامه الجزائيَّ بالقسوة، فهؤلاء ينظرون إلى الأمور بعينٍ عوراء، فهم لا

(١) "الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي"، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ١١-١٥.

يرون إلا العقوبة، ويتعامَون عن الجريمة! يقولون: قطع اليد عدوانٌ على حقوق الإنسان، وإهدار لكرامته، وتعطيلٌ لفعاليته!. لكن لماذا لا ينظرون إلى الجريمة وآثارها في المجتمع، من ترويعٍ للآمنين، وتخريبٍ للعمران، وزعزعة للأمن، وقتلٍ وفتكٍ وعدوانٍ على أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم. والواقع أن السارق مثلاً لا تقف جريمته عند حدِّ السرقة، فالسارق إذا وجد من يقاومه قد يقتله، وقد يصادف امرأة، فيغتصبها، وقد يتلف، ويحرق، وقد، وقد.. وهكذا في سلسلة من الجرائم البشعة التي تُخِلُّ بأمن المجتمع، وتهدد استقراره، ولا تنتهي عند حدٍّ. واقرأ إن شئت أخبار الحوادث المروِّعة التي تملأ صفحات الجرائد والمجلات، وتقشعر لهولها الأبدان!. نعم، قد يتضرر من حد السرقة بعض أفراد من شَواذِّ الناس، لكن المجتمع بأسره سيعيش في أمان، وهذا ما فعله الإسلام عندما نجح في تطهير المجتمع من الجريمة، وتحقيق الأمن والسلامة، فأيهما أولى بالرحمة: مجرمون من آحاد الناس وشواذهم أم المجتمع كله!؟. نعم، بعض الناس ينظر إلى العقوبات في الإسلام مبتورةً عن النظام الإسلامي العام برُمَّته، وفي هذا تشويه وتشويش، ولا يعطي صورة صحيحة وكاملة، وهو خطأ.

وخطأ آخر يقع فيه بعض من ينتقد نظام العقوبات، وهو

أنه ينظر إليه من خلال مجتمع يعايشه، حافلٍ بمثيرات الجريمة ودواعيها، من بَطالة وفقر وتفاوت طبقي وظلم اجتماعي وإثارة الغرائز الحَيَوانية، فيتخيل ساعتئذٍ صورة مفزعة منفِّرة للمجتمع، يتكاثر فيه مقطوعو الأطراف، وتندر الحجارة من كثرة الرَّجْم، وتزدهر مهنة الجلادين!. وهذا وهمٌ باطلٌ وتصورٌ خاطئٌ، ولا أريد الإطالة ههنا، ولكن أذكِّرك بعامٍ مرَّ على المسلمين، يسمى عام الرمادة، وقعت فيه مجاعةٌ شديدة، اضطَرَّت الخليفةَ الفاروق عمر بن الخطاب إلى رفع حد السرقة! لماذا؟. لأن الجوع بيئة خصبة ملجئة للسرقة، والحدود تُدرَأ بالشبهات، ولا تطبَّق إلا في مجتمعٍ نظيفٍ متَّزن.

إن الإسلام يعتمد على الترهيب بالعقوبة أكثر من إيقاع العقوبة؛ ولذلك يشترط حضورَ حشد من الجماهير، ليَرَوا تنفيذ الحكم، فيزحف الخوف إلى قلوبهم، ويقتل بَذْرَة الجريمة فيها، ويسلم المجتمع من آثارها المدمرة. فما أحوجَنا إلى تطبيق هذه التشريعات العظيمة الجليلة التي تُصان بها الحقوق، وتحفظ بها الحياة في هذا العصر الذي استفحلت فيه الجريمة، وزرعت (مافيا) الفساد الرعبَ والقلق في قلوبنا وبيوتنا، وعلى هؤلاء الذين يزعمون أن تنفيذ هذه الحدود قسوة أن يذكروا خطرَ الجريمة على الفرد والمجتمع

والدولة، بل تجاوزت الجريمة في أيامنا حدودَ الدولة، لتشكل خطراً على النظام العالمي بأسره.

وهناك وجهٌ آخر للرحمة في الحدود، لكن لا يفقهه إلا من آمن بالله واليوم الآخر، وهو أن العبدَ إذا أصاب حداً من حدود الله، وعوقب به، فإنه يكون كَفَّارة له. وهذا ما دفع بعضَ المجرمين إلى الإقرار بجرائمهم، وطالبوا رسول الله بتطهيرهم، ومنهم ماعز بن مالك رضي الله عنه الذي جاء رسولَ الله، وقد زنى فقال له: طهِّرْني يا رسول الله! (أي أقم عليَّ الحد!). فأعرض عنه رسول الله ﷺ، لعله يرجع ويتوب. إلا أن ماعزاً أبى إلا الحَدَّ، وكرر طلبه، وألح على رسول الله ﷺ، فأمر بتطهيره، في قصة طويلة.. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبةً لو قُسِّمت بين أُمة لَوَسِعَتْهُم»(١). ونحوه فعلت المرأة الغامدية.

وأكتفي بهذا القدر، فالحقُّ أبلج، والعيب ليس في الأبصار ولكن في القلوب الغُلْف، وصدق الله سبحانه القائل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾(٢).



---

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) من حديث بُرَيدة. وفي الحديث نفسه قصة المرأة الغامدية.
(٢) الحج: ٤٦.

المبحث الثاني: الرحمة في الحرب

أما الجهاد الذي جاءت به شريعتنا، وعمل به رسولنا ﷺ، والذي حاولت بعض تلك الصور تشويهه، فإنه يختلف عن الحروب القذرة التي تديرها الدول المجرمة والقوى المستكبرة، من حيث أغراضُه وغاياتُه، ومن حيث نظامُه وضوابطُه وآدابُه، فالجهاد في الإسلام يتميز بوضوح أهدافه، ووضوح وسائله، والتزامه بأحكام الشرع، ومكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام: قبل القتال، وأثناء القتال، وبعد القتال.

١- مفهوم الجهاد في الإسلام وأغراضه:

لا بدَّ أن تعلم أن مفهومَ الجهاد في الإسلام أوسع من القتال، وما القتال إلا أحد ميادينه، فالجهاد هو بذل أقصى الجهد بالدعوة والبلاغ المبين للرسالة، ويدخل فيه القتال عند الضرورة؛ لنصرة الدين وإزالة العقبات عن طريقه، وللدفاع عن النفس وردِّ العدوان عن الجماعة، وكذلك لرفع ظلم الجبابرة والطواغيت عن البشرية[1].

والجهاد في الإسلام يستخدم القوة في موضعها، وفي

(١) "آثار الحرب في الفقه الإسلامي" دراسة مقارنة، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، ط٤/ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٣٤-٣٧.

أوانها، وبقدر ما توجبه ضرورة الجهاد دون سَرَف أو تجاوز، ومع الأعداء المقاتلين الذين باشروا العدوان، وامتدت أيديهم بالسوء إلى الإسلام وأهله، ففتنوهم في دينهم أو عذبوا المستضعفين من المؤمنين أو أخرجوهم من ديارهم، أو نهبوا ثرواتهم وأموالهم، وجاروا على حقوقهم، أو الذين احتلوا أراضيَهم، وانتهكوا حرماتهم، وداسوا مقدساتهم، فالجهاد هنا مشروعٌ بل مفروضٌ، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [1]، وما أظن هذا إلا محل اتفاقٍ بين جميع الشرائع والقوانين، السماوية منها والوضعية.

فالجهاد في ديننا من حيثُ أهدافُه لا يرمي إلى ظلم الأمم واستعبادها وتفتيتها ونهب خيراتها، والاستكبار في الأرض، وإشاعة الفساد والفوضى والفتن كما هو الحال في الحروب الصليبية قديماً، والحروب الاستعمارية حديثًا، وحروب أمريكا وحلفائها في أفغانستان والعراق وسواها، بل شُرِع الجهاد لدفع العدوان وردِّ الظلم، وهو حقٌّ كفلته كل الشرائع، السماوية منها والوضعية، قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

(١) البقرة: ١٩٠ .

ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[١] .

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبين له أنه لم يُكرِه أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فإنه ﷺ لم يقاتله ما دام مقيماً على هُدْنته لم ينقض عهده، ولم يُكرِه أحداً على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعاً، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقاً[٢] .

وضرب ابن القيم مثلاً أهلَ اليمن وأهلَ الشام وفارس ومسلمة اليهود، وكيف اختاروا الإسلام على أديانهم، طوعاً لا كرهاً[٣]، بخلاف تاريخ انتشار المسيحية، فقد فرض الإمبراطور شارلمان المسيحية على السكسونيين بحدِّ السيف، وقام الملك النرويجي (أولاف تروجسون) بفرض المسيحية قهراً على أحد رؤساء القبائل المجاورة، مهدداً له بثعبان سامٍّ

(١) الحج: ٣٩ - ٤٠ .

(٢) "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى"، ابن قيم الجوزية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ص ١٢ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٢ .

وجَّهه إلى عنقه، وكان القوط في الأندلس يُجبرون اليهود على التنصُّر، ويعذبونهم بوحشية وبشاعة، وفي سنة **١٤٥٤م** أصدر البابا مرسوماً منح فيه (هنري) البحَّارَ البرتغالي الحقَّ في أن يغزو وأن يحتل، ويُخضع جميع الشعوب والأقاليم التي يسودها حكم أعداء المسيح، وأن يحتل، ويحوز البحار اللازمة للقضاء على انتشار (طاعون الإسلام). وكان مما جاء في هذا المرسوم البابوي ما يأتي: «إن سرورنا لعظيمٌ أن نعلم أن ابننا المحبوب (هنري) أمير البرتغال قد سار على خطا أبيه - الملك جون - بوصفه جندياً قديراً من جنود المسيح؛ ليقضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين والكفرة»[١]. فهذا يدل على شدة التعصب الديني عند النصارى، لكن المسيح والمسيحية براءٌ من العدوان والعنف والتعصب الممقوت.

لقد سُفكت باسم المسيحية وفي سبيلها دماء أغزر مما سُفك في سبيل أي دعوة أخرى في تاريخ البشرية. بل إن القارة الأوربية التي هي مقَرُّ المسيحية، هي وكر الحروب والدمار على مدى الألف الأخيرة من السنين[٢]. وسنجد أنفسنا بعد قليل مضطرين للوقوف قليلاً عند سلسلة الحروب

(١) "آثار الحرب في الفقه الإسلامي" ص ٥٢ .

(٢) المصدر السابق، ص ٥٢ .



الصليبية الطاحنة التي شنتها أوربة ضد المسلمين، وباسم رسول المحبة والسلام المسيح عليه الصلاة والسلام.

وعَودٌ على بدءٍ، أقول: نحن -المسلمين- مأمورون بقتال من قاتلَنا من الكفار، أو صدَّ عن سبيل الله، فليس الكفر هو سبب قتالنا إياهم، لكنه رد العدوان وإزالة الفتنة؛ لإظهار دين الله، والمقصود بالفتنة ردُّ دعوة الإسلام ومنع الناس من اعتناقه وصرفهم عنه. قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[(١)].

فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله، لا تُشرَع مقاتلته؛ لأنه لا مضَرَّة علينا من كفره، وإنما مضرة كفره على نفسه، وهذا قول جمهور فقهاء الإسلام، وهو الذي يدلُّ عليه الكتاب والسنة، فإن الله سبحانه قال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[(٢)] فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ تعليق للحكم بكونهم يقاتلوننا، فدلَّ على أن رد العدوان علَّةُ الأمر بالقتال، ثم قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ والعدوان: مجاوزة الحد،

(١) البقرة: ١٩٣-١٩٤ .
(٢) البقرة: ١٩٠ .



فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عدوان، ويدل عليه قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فدل على أنه لا يجوز الزيادة، وأنه ينبغي الاقتصار على مقاتلة من يقاتل، وأن من الاعتداء مجاوزةَ قتل من يستحق القتل إلى قتل من لا يستحقُّه من النساء والأطفال والشيوخ ومن اعتزل[١].

قد تقول: هذا يفسر لنا غزوات الرسول ﷺ وحروبه التي خاضها، لكن ما بال المسلمين اجتاحوا وسط أوربة، ووصلوا تخوم الصين، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الفتوحات الإسلامية قد جرت بعد موت الرسول ﷺ، ولكنه بدأ ذلك بنفسه عندما شنَّ حرباً على الروم في عُقْر دارهم؟.

والجواب عن هذا الإشكال: إن الحرب ضرورة تفرضها طبيعة الاجتماع البشري، وسنة الدفْع بين الناس التي ذكرها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]. والدليل على هذه السنة الكونية أنه لم تَخلُ الأرض في عصرٍ من العصور من الحروب والصراعات، ولن

---

(١) "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير"، محمد بن علي الشوكاني، ١/ ٢٩٣.

(٢) البقرة: ٢٥١.

تخلوَ!. وإذا قلَّبنا صفحات التاريخ لا نجد أمة من الأمم، تكاد تخلو من الحروب مع الأمم المجاورة أو فيما بينها، وبالذات في ممالك وإمبراطوريات العالم القديم، كقدماء المصريين والهكسوس والحثِّيين والآشوريين وأهل بابل وفينيقيا والفُرْس والإغريق وشعوب أوروبة من السلتيين والقوطيين والغاليين والصقلبيين والجرمان والنورمان والتتر[١]. وكذلك الإغريق كانت الحروب عندهم قائمة على قدم وساق، ومن أشهرها حروب مورة (٤٣١-٤٠٤ ق.م)، ثم نَشِبَت بينهم حروب صقلية (٤١٥- ٤١٣ق.م)، وحرب الفرس (٤٨٠ ق.م)، وحرب طَرْوادة الضروس التي استمرَّت من سنة (١١٩٣-١١١٤ق.م)، وحروب الإسكندر المقدوني[٢].

ولا يختلف الرومان كثيراً عن اليونان في نظرتهم الفوقية للشعوب الأخرى وعلاقتهم العدائية بها، وتاريخهم ملآن بالحروب، كحروبهم مع إيطاليا واليونان وقَرطاجَنَّة، ثم البلاد الشرقية وحرب الفرس. ولقد عظَّم الرومان الحرب حتى نصبوا لها الإله مارس، وعظَّمها اليونان فنصبوا لها زيوس، وقدسها قدماء المصريين فصنعوا لها الإله حورس[٣].

(١) "آثار الحرب في الفقه الإسلامي"، الزحيلي، ص ٤٠ .
(٢) المرجع السابق، ص ٤١ .
(٣) المرجع السابق، ص ٤٢ .



وإذا نظرنا في أمر الحرب بالنسبة للديانات لم نجد حرباً أقسى وأعنف مما هو موجود في الديانة اليهودية، التي تُعَدُّ الحرب فيها حربَ إبادة واستئصال لكل معالم العدو. في الباب العشرين من (سِفْر الاستثناء): «١٠ وإذا دنوت من قرية لتقاتلها ادعهم أولاً إلى الصلح. ١١ فإذا قبلت وفتحت لك الأبواب فكلُّ الشعب الذي بها يخلص ويكونون لك عبيداً يعطونك الجزية. ١٢ وإن لم تُرد أن تعمل معك عهداً وتبتدئ بالقتال معك فقاتلها أنت. ١٣ وإذا سلمها الرب إلهك بيدك اقتل جميع من بها من جنس الذكر بفم السيف. ١٤ دون النساء والأطفال والدواب وما كان في القرية غيرهم، واقسم للعسكر الغنيمة بأسرها وكُلْ من سَلَب أعدائك الذي يعطيك الرب إلهك. ١٥ وهكذا فافعل بكل القرى البعيدة منك جداً وليست من هذه القرى التي ستأخذها ميراثاً. ١٦ فأما القرى التي تُعطى أنت إياها فلا تَستَحْيي منها نفساً البتة. ١٧ ولكن أهلكهم إهلاكاً كلهم بحد السيف، الحيثي والأموري والكنعاني والفرزي والحوايي واليابوسي كما أوصاك الرب إلهك». وتكرر هذا في الباب الثالث والعشرين من (سِفْر الخروج)، وفي الباب الثالث والثلاثين من (سِفْر العدد)، وفي الباب السابع من (سِفْر الاستثناء)، وفي مواضع كثيرة من أسفار العهد القديم، لا يمكن نقلها

ههنا، ولا يتسع لها البحث، فظهر من عبارات العهد القديم أن الله أمر في حقِّ القبائل الست، أعني الحيثانيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحواين واليابوسيين، أن يُقتلَ بحد السيف كلُّ ذي حياة منهم، ذكورهم وإناثهم وأطفالهم، وهؤلاء يبلغ تعدادهم قريباً من ثمانين مليون نسمة أو يزيد حسب كتاب: "كشف الآثار في قصص أنبياء بني إسرائيل"[١]. وأمر فيما عداهم، أن يُدعَوا أولاً إلى الصلح، فإن رضوا به وقبلوا الإطاعة وأداء الجزية فبها، وإن لم يرضَوا يحارَبوا، فإذا حصل الظفر عليهم، يقتل كل ذكر منهم بالسيف ويسبى نساؤهم وأطفالهم، وتنهب دوابهم وأموالهم، وتقسم على المجاهدين، وهكذا يفعل بكل القرى التي هي بعيدة من قرى الأمم الست. يقول رحمة الله الهندي: «وهذه العبارة الواحدة تكفي من جوابهم عن تقريراتهم الواهية، وقد نقلها علماء الملة الإسلامية سلفاً وخلفاً في مقابلتهم، لكنهم يسكتون عنها كأنهم لم يَرَوْها في كلام المخالف، ولا يجيبونه عنها لا بالتسليم ولا بالتأويل»[٢]. وفي الباب الثالث والثلاثين من (سِفْر العدد): «**٥١** مُر بني إسرائيل وقل لهم إذا عبرتم الأُرْدُنَّ وأنتم داخلون أرض كنعان. **٥٢** فأبيدوا كل

(١) انظر: "إظهار الحق"، ص ٨٢ . وهذا الرقم تقديري غير ثابت أو قاطع.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٨١ .

سكان تلك الأرض واسحقوا مساجدهم واكسروا أصنامهم المنحوتة جميعها واعقروا مذابحها كلها. ٥٥ ثم أنتم إن لم تبيدوا سكان الأرض فالذين يبقون منهم يكونون لكم كأوتاد في أعينكم، ورماح في أجنابكم، ويشقون عليكم في الأرض التي تسكنونها. ٥٦ وما كنت عزمت أني أفعل بهم سأفعله بكم». وهكذا فأسفار اليهود المتداولة اليوم طافحة بأنباء القتل والتخريب والتدمير والإهلاك والسبي، فهي تقرر شريعة القتال، ولكن في أبشع صورها حيث تحكم بقتل كل ذي حياة من الحثيين، ومن ذُكِر معهم، ولو كان طفلاً أو امرأة أو كانوا بالملايين. ووحشية اليهود في حروبهم في فلسطين، ومجازر دير ياسين، وكفر قاسم، وصبرا، وشاتيلا، وقانا، وغزة، وجنين وغيرها.. دليل ماثل أمام أعيننا، وثمرة للعنف والتطرف الذي تغذيه بهم النصوص الدينية المحرفة.

أما في الديانة المسيحية فإن تعاليم السيد المسيح عليه السلام التي تنادي: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم»، ساعدت على توحيد دعائم السلام في العالم، وتجنيبه ويلات الحروب طيلة ثلاثة قرون إلى أن جاء القديس (أوغسطين) من بداية القرن الرابع الميلادي؛ ليسوِّغ الحرب العادلة كما سماها، مؤيداً لها بعبارات للسيد المسيح جاءت في الإصحاح العاشر من إنجيل متى (العهد

الجديد/ ٣٤): «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً بل سيفاً؛ فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكَنَّة ضد حماتها. وأعداء الإنسان أهل بيته، من أحب أباً أو أماً أكثرَ مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني، ومن وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي، يجدها» (٢٤-٣٩). وقال في إنجيل لوقا في الإصحاح الثاني عشر: «جئت لألقي ناراً على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت ولي صبغة أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تكتمل. أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً، كلا أقول لكم بل انقساماً» (٤٩-٥١)[1]. هذه الوجهة الجديدة في فلسفة النصرانية للحرب كان من ثمارها فيما بعد حروبٌ طويلة دامت قروناً، وحصدت ملايين الأرواح البريئة من المسيحيين أنفسهم، واستأصلت ملايين المسلمين واليهود بعد أن لاقَوا أبشع الظلم والعذاب في أقْباء محاكم التفتيش سيئة الذكر، إثر سحق دولة الأندلس ومحو حضارتها وعلومها[2].

وعَودٌ على بدء: فإن الفتوحات الإسلامية قد اجتمع فيها ضرورة الدفع حسب سنن الله في المجتمعات، وضرورة

(١) "آثار الحرب في الفقه الإسلامي"، الزحيلي، ص٤٠ وما بعدها.

(٢) "حضارة العرب"، غوستاف لوبون، ص٣٣٥. عن "آثار الحرب" للزحيلي، ص٥٠.

الدعوة ونشر الدين الحق، فالمسلمون إنما خرجوا من جزيرة العرب لنشر دين الإسلام، كلمةِ الله الأخيرة إلى البشرية، التي جاءت لإتمام رسالة موسى وعيسى عليهما السلام، وهذا ما يجهله كثيرٌ من الناس، ويصدهم التعصب لأديانهم ومعتقداتهم عن قَبول دين محمد ﷺ أو الاعتراف بهذه الحقيقة، فالإسلام بنيان واحد أسهم في تشييده سائر الأنبياء من لَدُنْ آدم ونوح وإبراهيم وحتى آخرهم وخاتمهم محمد، وهم جميعاً إخوة يكمِّل كلٌّ منهم الآخر، قال رسول الله ﷺ يمثِّل لرسالة الإسلام التي حملها الرسل كافةً: «إن مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء قَبْلي، كَمَثَل رجُل بَنى بُنيانًا فأحسَنَه وأجمَلَه، إلا موضعَ لَبِنَةٍ من زاويةٍ من زَواياه، فجَعَلَ الناسُ يَطوفون به ويَعْجَبون له، ويقولون: هَلَّا وُضِعَت هذه اللَّبِنَة؟ قال: فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتَمُ النَّبيين»[١].

وأريد أن أنبِّه علىٰ أمرٍ آخر، يغفل عنه كثيرٌ من الناس، وأراه مهماً جداً وجوهرياً، وهو أن الجهاد ليس شريعةً جديدة ابتدعها الإسلام، ولكنه فريضة قديمة، قام بها رسل الله موسى وداود وسليمان وغيرهم، وذلك أن الله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، ولم يخلقهم عبثاً،

(١) متفق عليه، البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة.

فلمَّا خرج بعض عباده عن طاعته سبحانه، وتكبَّروا عن عبادته التي خُلقوا لأجلها، وعبدوا من دونه الأوثان، واتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، شرع الجهاد لإخراج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان، فكان الجهاد من سنة الأنبياء، إلى أن جاء نبينا محمد ﷺ فمضى على هذه الشريعة نفسها، وهي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وهذا يفسر لنا الفتوحات الإسلامية، إذ خرج العرب لحمل رسالة الله إلى الشعوب التي كانت آنذاك مستعبدة لملوكها وحكامها من الجبابرة والطواغيت، فكان من أعظم أهداف الفتوحات بعد نشر الإسلام، تحرير الشعوب من سطوة الملوك الآلهة، وتعسفِ الحكام المستبدِّين الذين استعبدوها من دون الله، وهذا ما يفسِّر استقبال الشعوب المقهورة للفاتحين المسلمين ومؤازرتها لهم في أثناء الفتح.

وهذا الهدف الأسمى من الجهاد يعلمه كلُّ فرد في جيش المسلمين، ولا يغيب عن باله، جاءَ رجُلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: الرجُلُ يُقاتلُ للمَغنم، والرجُلُ يُقاتلُ للذِّكر، والرَّجلُ يقاتلُ ليُرى مكانهُ، فمَنْ في سبيلِ الله؟ قال: «مَن قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا فهو في سبيلِ الله»[(١)]. وفي معركة

(١) متفق عليه، البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

القادسية بعث أمير الجيش سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه أحدَ جنوده واسمه رِبْعِيُّ بن عامر إلى رستم قائد الفرس فدخل رِبْعيٌّ عليه وقد زين مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابيِّ الحرير، وأظهر اليواقيتَ واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجُه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة.. وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل رِبْعيٌّ بثياب رَثَّة وسيف وترس وفرس قصيرة لم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البِساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكَّأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامَّتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنُخرجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه؛ لندعوَهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نقفي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظَّفَر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخِّروا هذا الأمر حتى ننظرَ فيه وتنظروا. قال: نعم! كم أَحَبُّ إليكم يوماً أو يومين؟ قال:

لا بل حتى نكاتبَ أهل رأينا رؤساء قومنا. فقال: ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثرَ من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال: أسيِّدُهم أنت؟! قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قطُّ أعزَّ وأرجحَ من كلام هذا الرجل؟. فقالوا: معاذَ الله أن تميل إلى شيء من هذا، تدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة! إن العربَ يستَخِفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب[1].

وبهذا يتبيَّن أن المقصود من الجهاد هو رحمةُ الناس وهدايتهم للإسلام، وفسح السبيل أمامهم لمعرفة الحق، ودفع الظلم عنهم، وليس المقصود هو القتل والسلب واستعباد الناس.

قد تقول: كل الدول الطاغية والقوى المستكبرة تتذرَّع بالأغراض الشريفة والمقاصد الجليلة في شنِّ حروبها، وتدَّعي تحرير الشعوب وجلب الحضارة والسعادة والحرية

(١) "البداية والنهاية"، ابن كثير ٧/ ٤٠.

إليها! ولكن شتان بين دعاوى كاذبة مزيفة تقذف بها أبواقُ إعلامها الخادع رئاء الناس؛ وبين حرب المسلمين التي كانت بركةً ونعمة وتحريراً حقيقياً للشعوب من الطغيان السياسي وظلم الملوك المتألِّهين!.

ولقد عرفت بلادنا الاحتلالَ الأوربي الذي زعم أنه جالب الحضارة وناشر العمران، ولكنه ما إن تمكن فيها حتى أنشب أظفاره وأنيابه في جسم الأمة، فأفسد الأخلاق والآداب، وفصم عُرى التماسك الاجتماعي، وحاول هدم كل مقوِّمات الأمة الثقافية والدينية والحضارية، بل حال بين الناس والعلم والتهذيب والصلاح، إلا طائفة على دينه فتح لها أبواب كلِّ شيء، وأخرى تطاوعه وتنفذ مآربه ألقى إليها بالفُتات.. غير أنه فرض على الأمة تعلم لغات المحتلين وتاريخهم وأديانهم؛ لأجل هدم مقوِّماتها الدينية والثقافية والقومية، حتى لا يُرجى لهم البرء من رق الاستعمار والتحرُّر من ربقته، كما هو معروف في جميع المستعمرات الأوربية، كبلاد الجزائر التي اقتلع الاحتلال الفرنسي لسانَ أهلها، وحاول أن يجتَثَّ دينها ويطمس حضارتها ويلغي خصوصيتها الثقافية، مستخدماً وسائل وأساليب وحيلاً بلغت في الخسة والدناءة والبغي الغاية، فقد كان الفرنسيون في الجزائر على سبيل المثال يحرقون كل ما وقعت أيديهم عليه

من كتاب أو مجلة أو جريدة أو حتى ورقةٍ، مجرد ورقة كتبت حروفها بالعربية[١]، خلافاً لما كان عليه المسلمون الأولون في فتوحهم من العدل والإصلاح والتعمير، وليس التخريب والتدمير، بشهادة المؤرخين الغربيين أنفسهم من مثل غوستاف لوبون صاحب العبارة الشهيرة: «ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب»[٢]!.



٢- التوازن بين القوة والأخلاق:

إذا كانت الحرب ضرورة، فلا يعني هذا الخضوعَ لغرائز الغضب والتعصب وإشباع نوازع الحقد والقسوة والأنانية. وإن سياسة الإسلام في الحرب كسياسته في السلم، لا تجافي الرحمة، ولا تنفصل عن الأخلاق، فالحرب لا تعني الفجور في الخصومة، ولا الجَوْر في المعاملة، ولا الوحشية في القتال، ولا الانتقام والتشفي بعد القتال، كما قال سبحانه - وهو يعلِّم المؤمنين -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

(١) ابن باديس كان أمة وحده، مجلة أمتي، العدد الحادي عشر، ص ٣٦ .
(٢) "حضارة العرب"، غوستاف لوبون، ص ٤٠ .



﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾[(١)]. وإذا كان لا بد من الحرب، رداً لعدوانٍ أو دفعاً لفتنة، فلتكن حرباً تضبطها الأخلاق، وتحكمها الموازين، ولا تسيِّرها الشهوات والإحَن. لتكن ضد الطغاة والمعتدين وذئاب البشر، لا ضد البرآء والمسالمين والمستضعفين، وهذا واضح في تشريع القتال في القرآن ووجهته التي ارتضاها له عندما قال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾[(٢)]. وبذلك غيَّر الإسلام أغراضَ الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية قديمها وحديثها؛ من النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوتر، وكبت الضعيف، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة بالضعاف والصبيان، وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض، وهذا لا ينطبق على العرب بل كان هذا حالَ الحروب عند الروم والفرس وجميع شعوب الأرض، في حين تتَّجه الحرب في الإسلام إلى تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية، وغايات محمودة، وتتقيد بأخلاق الرحمة وآداب الإنسانية.

---

(١) المائدة: ٨ .

(٢) البقرة: ١٩٠ .



وهنا أمر أحب أن ألفتَ نظرك إليه، لأنك قد تقرأ بعض النصوص في القرآن والسنة، فتتوَهَّم أنها تتعارض مع معاني الآية السابقة، خذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾[1]، أو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[2]!. فهذه الآيات ونحوها يوهم ظاهرها التعارضَ مع ما سبق تقريره، وأنا أقول لك: ليس بينهما تعارض إلا في الظاهر، فلكلِّ نصٍّ منها مجاله الذي يختلف عن الآخر، فالآية السابقة: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ أصلٌ ثابت من أصول تشريع الجهاد، وقاعدة كلية من قواعده تتصف بالعموم والشمول والثبات.

أما الآيات الأخرى فجاءت في سياق تاريخي معين، ونزلت في عدوٍّ محارب، ما تزال الحرب بينه وبين المسلمين مستعرةً، والمشركون هم الذين بدؤوها وسعَّروها، وكلما انطفأت أوقدوها، فلا يصح تنزيل هذه الآيات على قومٍ

(١) التوبة: ٥ .

(٢) التوبة: ١٢٣ .



آخرين مسالمين؛ لأن الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم السلم لا الحرب، غير أن من أراد السلم فلا بدَّ له من قوةٍ تحميه، ولا مفَرَّ من الاستعداد للحرب، فالضرورة تقدَّر بقدرها[١]. ويقول الشيخ محمد أبو زهرة في "العلاقات الدولية في الإسلام": «الأصل في العلاقات هو السلم.. ولا يسمح الإسلام لأتباعه بالتدخل في شؤون الآخرين إلا لضرورة»[٢].

وقد انتقد بعض الباحثين فكرة عدم التدخل في شؤون الآخرين مطلقاً؛ لأنها قد تكون قبيحة أحياناً وحسنة في أحيان أخرى لنصرة المظلومين مثلاً، ودفاعاً عن الأقليات المضطهدة، وها هي ذي الدول الكبرى اليوم تعطي هذا الحق لنفسها بحُجَّة تعميم القيم الديمقراطية وحماية الأقليات ونحو ذلك!. ويقرر في نهاية المطاف أن التدخل في شؤون الآخرين لتحقيق مصالحَ إنسانية لا ضير فيه. ثم يخلص إلى نتيجة مفادها أن الأصلَ الحربُ مع الدول المعتدية وإن كانت معاهَدَة، أما الدول التي لم تُبَلَّغ الإسلام فالسلم هو الأصل[٣]. ولكن أصحاب الخطاب الآخَر المجافي للوسطية

---

(١) "آثار الحرب"، الزحيلي، ص ١٣٠- ١٣٧.

(٢) "الجهاد والقتال في السياسة الشرعية"، د. محمد خير هيكل، دار البيارق بيروت، توزيع دار ابن حزم بيروت، ط٢/ ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٣) المرجع السابق، ص ٨١٨-٨٢٠، ٨٢٧.

والاعتدال أساؤوا فهم النصوص، وأحَلُّوها في غير محلها، وانتَقَوا منها ما يخدم أهواءهم، وأصدروا أحكامهم القاسية علىٰ غير المسلمين، مستشهدين بالنصوص نفسها التي نزلت في قريش مثلاً، دون تحقيق لمناط الحكم، بل لم ينجُ منهم المسلمون أنفسهم! غير أن أصحاب هذا الخطاب لا يمثلون جمهور الأمة، لأن التيار العامَّ والأقوى هو تيار معتدلٌ متَّزن، بيد أنه توصد في وجهه الأبواب، ولا تسلَّط عليه الأضواء!.

قد تقول: دعني من جماعات التطَرُّف والترويع التي قد تكون استثناء من الأصل وخروجاً من القاعدة، أفرزتها ظروفٌ وإحباطات وضغوط غير عادية، ومثيلاتها لا يكاد يخلو منها مجتمعٌ من المجتمعات الإنسانية، غير أن بعض النصوص من الكتاب والسنة تدعو صراحة إلى ترويع الآمنين والاعتداء على البرآء، مثل الآية التي تقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[١]؟!.

ويذكرني هذا الفهم المغلوط للآية بقول المتنبي[٢]:

وكم مِنْ عائبٍ قَولاً صحيحاً ... وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقيمِ

(١) الأنفال: ٦٠ .

(٢) شرح ديوان المتنبي، عبدالرحمن البَرْقوقي، ٢٤٦/٤ .



فليس المراد من الآية العدوان والترويع، ولم يرد هذا المعنى في أي كتاب من كتب التفسير المعتمدة، وإنما تحضُّ الآية على الأخذ بأسباب القوة التي تزرع المهابةَ في نفوس الأعداء الذين يتربَّصون بنا الفرص، وهو جزءٌ أساسي من عملية الحرب الدفاعية، وهو المعروف اليوم بالسلم المسلح. والدفاع عن النفس وحماية الحقوق مباحٌ عند جميع الأمم، وهو المراد بالآية الكريمة وما يشابهها من النصوص.

أما قوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عَصَمَ مني نفسَهُ ومالَهُ إلا بحَقِّه، وحِسابُهُ على الله»[1]، فهذا النص ظاهره يوهم أن الإسلام يخيِّر الناس بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن تُسلموا أو تُقتلوا!. لكن ظاهر هذا يتعارض مع المعاهدات التي أقامها الرسولُ مع اليهود في المدينة، وبحسَب الحديث كان ينبغي أن يكرههم على اعتناق الإسلام، فلِمَ تركهم على دينهم؟ والكلام نفسه ينطبق على بقية البلاد التي فتحها المسلمون، فإنهم لم يُكرِهوا أهل تلك البلاد على الإسلام، ومن دخل منهم فيه فبمِلء إرادته واختياره. أما مقولة أن الإسلام انتشر بحَدِّ السيف، فشبهة واهية داحضة من وجوه عدة، دينية وتاريخية، بل الحسُّ والواقع يدحضان هذه

(١) متفق عليه، البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة.

الفِرْية، وأقصد وجود طوائف اليهود والنصارى في بلاد المسلمين شرقها وغربها، وتعايشهم مع أهلها، فلو عرف المسلمون محاكم التفتيش، ونقلوا خبرة الإسبان والأوربيين في التعذيب والاضطهاد الديني، لما تركوا على ظهرها من يهودي ولا نصراني، على غِرار التطهير العِرْقي الذي وقع للمسلمين في الأندلس بعد ثمانية قرون من الاستقرار فيها، وذهب ضحيته ملايين المسلمين واليهود.

أما الإسلام فقد دعا إلى التسامح والعفو والرحمة، وأقرَّ مبدأ الحرية الدينية، ورفع شعار: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1]، ولذلك نقول بكل فخرٍ واعتزاز: إن المسلمين هم الأمة الوحيدة على مرِّ التاريخ التي لم تُكرِه الشعوب الخاضعة لها على اعتناق دينها، وما يزال إلى أيامنا هذه طوائف اليهود والنصارى والصابئة والهندوس وسواهم يعيشون بيننا، وقد منحهم الإسلام حقَّ ممارسة عباداتهم وطقوسهم، واحتفظوا بدور عبادتهم وأديرتهم، ويحقُّ للمستشرقة الألمانية د. زيغريد هونكَه أن يأخذها العجب، فتقول: «هذا عجيبٌ حقاً، إن مثل هذا لم يقع من قبل، من هو الإنسان الذي لا يستنشق نسيمَ الحرية بعد الحكم البيزنطي الجائر القاسي، وبعد هذه الاضطهادات الشنيعة التي جرت في إسبانيا، والاضطهادات

(١) البقرة: ٢٥٦.

المتواصلة التي قاسى اليهود الكثيرَ من أهوالها؟ إن المسلمين السادة الجدد حماةَ البلاد وحكامها لم يتدخلوا في مسائل رعاياهم الداخلية (إنهم عادلون) - هكذا كتب بطريرك القدس في القرن التاسع إلى بطريرك إستنبول - والمسلمون لا يظلموننا أو يضطهدوننا. إنهم يمنحون مختَلِفَ أفراد رعاياهم من أصحاب العقائد الأخرى كل حرية في تأدية فرائضهم الدينية أو حقوقهم المدنية متى ما دفعوا الجزية وأطاعوا أولي الأمر»[(١)].

فالحديث المذكور آنفًا: «أُمرت أن أقاتل الناس...»، إنما ورد في بيان ما يَحقنُ دم الكافر المحارب في أرض القتال، كما يبين أن المسلمين إنما يجاهدون لنشر دينهم، وليس لاستعباد الناس وظلمهم. والكلام حمَّال أوجه، ومن أراد الشُّبَه حمله على غير وجهه لغاية في نفسه، ولو أنصف لجمع بين النصوص، وفهمها على ضوء سياسة الرسول ﷺ وسيرته.



(١) "شمس الله تسطع على الغرب"، د. زيغريد هونكه، دار النهضة العربية، القاهرة.

٣- آداب الجهاد وضوابطه والرحمة فيه:

وأرى من الضروري التوسع في الحديث عن آداب الجهاد وضوابطه والرحمة فيه، لتعلقها بموضوع البحث مباشرة، فقد شرع رسول الرحمة ﷺ للحروب قواعد أخلاقية ألزم جنوده وأمراء جيوشه التقيدَ بها في مُختَلِف الظروف، وأهمها الوفاء بالعهود والمواثيق، والرحمة في الحرب، والعدالة، والمعاملة بالمثل عند الضرورة[(١)]. عن بُرَيدة الأَسْلَمي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سَريةٍ أوصاه في خاصَّتِه بتقوىٰ الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كَفَر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِروا ولا تُمَثِّلوا ولا تَقْتُلوا وَليداً»[(٢)].

وكان إذا جاء قوماً بِلَيْل لم يُغِرْ عليهم حتى يُصبِح، ونهى أشد النهي عن التحريق في النار، ونهى عن قتل الصَّبْر، وقتل النساء وضربهن، وعن رَباح بن ربيع قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فرأى الناسَ مجتمعين على شَيء فبعث رجلاً فقال: «انظُر علامَ اجتمع هؤلاء؟» فجاء فقال: على امرأة قتيل. فقال: «ما كانت هذه لتُقاتِل!» قال: وعلى

(١) "آثار الحرب" ص ١٤١ وما بعدها.

(٢) رواه مسلم (١٧٣٠).

المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلاً فقال: «قُل لخالد لا تَقتُلَنَّ امرأةً ولا عَسيفاً»(١). وعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «انطَلقوا باسم الله، وبالله، وعلى مِلَّة رسول الله، ولا تَقْتلوا شَيخاً فانياً، ولا طِفلاً ولا صغيراً، ولا امرأةً، ولا تَغُلُّوا، وضُمُّوا غَنائمَكُم وأصْلِحوا ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾»(٢). ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتَدَّت إليها الحاجة، ولم يبق سواه سبيل. ووصَّى عند فتح مكة فيما رُوي عنه: «لا تُجهِزُنَّ على جَريح، ولا تَتَّبِعُنَّ مُدْبراً، ولا تَقتُلُنَّ أسيراً»(٣)، وأمضى السُّنة بأن السفير لا يُقتل. إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهَّرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهاداً مقدساً.

ولم تكن هذه الوصايا مجرد كلام يُمضَغ للدعاية، لكنه كان يأخذ طريقه إلى التطبيق العملي، وشواهده وصوره كثيرة.. ومنها فتح مكة، وكان من أعظم أيام الإسلام، وعادةُ المنتصر أن يمتلئ زَهْواً وخُيَلاء وغروراً، وقد يسرف في القتل والانتقام؛ ليطفئ نار الحقد التي تشتعل في قلبه، ويشفي غَليله من خصوم الأمس الذين وقعوا في قبضته، وقد كانت راية الأنصار في فتح مكة مع سعد بن عُبادة، فلما مَرَّ

(١) رواه أبو داود (٢٦٦٩).
(٢) رواه أبو داود (٢٦١٤).
(٣) "فتوح البلدان" ١/ ٥٣ .



بأبي سفيان قائد قريش المنهزم قال له مهدِّداً : اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَة، اليوم أذَلَّ الله قريشاً. فلما حاذى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله، ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: «وما قال؟» فقال: قال كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن بن عَوْف: يا رسول الله، ما نأمَنُ أن يكونَ له في قريش صَولَة، فقال رسول الله ﷺ : «بل اليوم يوم تُعَظَّم فيه الكعبة، اليوم يوم أعَزَّ الله فيه قريشاً»[1]. ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس بن سعد.

أما رسول الله ﷺ فقد كان يضع رأسه تواضعاً للّه حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن شعر لحيته ليكاد يَمَسُّ واسطة الرحل. ثم مشى رسول الله ﷺ بعد ذلك، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاث مئة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ

(١) "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية" ، دراسة تحليلية، د مهدي رزق الله أحمد، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١/ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م، ص ٥٦٤ . ورواه البخاري بلفظ: «كذب سعد، ولكن هذا يومٌ يعظم الله فيه الكعبة، يومٌ تكسى فيه الكعبة».

ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(١)، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾(٢)، والأصنام تتساقط على وجوهها. وبعد تطهير الكعبة صلى الرسول ﷺ فيها ثم خطب أمام قريش، وكانت قد ملأت المسجد صفوفاً، ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعِضادَتَي الباب وهم تحته، فكان مما قاله في خُطبته: «يا معشَرَ قريش، إن الله قد أذهَبَ عَنكُم نَخوَةَ الجاهليَّة وتَعَظُّمَها بالآباء، الناسُ من آدمَ، وآدمُ من تُراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾(٣)». ثم قال: «يا معشَرَ قريش ما تَرَونَ أني فاعِلٌ بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «فإني أقولُ لكم كما قال يوسُفُ لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ اذهَبوا فأنتم الطُّلَقاء»!(٤).

فكيف ترى معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المشحون عداوة وبغضًا؟ وأنا أريدك أن تتخيل أن نابليون مثلاً هو ذاك الفاتح الظافر بدل محمد، فكيف سيتصرف؟ لن أُسلمك للخيال، فقد استسلم لنابليون أهالي مدينة عكا سنة

(١) الإسراء: ٨ .

(٢) سبأ: ٤٩ .

(٣) الحجرات: ١٦ .

(٤) "سيرة ابن هشام"، ما قاله عليه السلام على باب الكعبة ٥/ ٧٤ .



١٧٧٩م بعد أن أعطاهم الأمان، ولكنه نقض عهوده، وأبادهم عن بَكْرَة أبيهم!!.



٤- فظائع الحروب الصليبية:

وتعال معي لترى الصور الفظيعة والمناظر المروِّعة وحمامات الدم والإبادة الجماعية التي قامت بها جيوش الحملات الصليبية التي بدأت أولاها في ١٠٩٦م، وخرجت الأخيرة منها من أوروبة في ١٢٥٠م، وذلك بقيادة رهبان النصارى وقساوستهم، ونقلها المؤرخون المعاصرون منهم والشهود لتلك الحوادث، وأقتصر على بيت المقدس. ماذا جرى فيه لما دخله الصليبيون؟

قال ابن الأثير: «وقتل الفِرَنْج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفًا وأربعين قنديلًا من الفضة، وزنُ كل قنديل ثلاثة آلاف وست مئة درهم، وأخذوا تنُّورًا من فضة وزنه أربعون رطلًا بالشامي، وأخذوا من القناديل الصغار مئة وخمسين قنديلًا نقرة، ومن الذهب نيفًا وعشرين قنديلًا، وغنموا منه ما لا يقع

عليه الإحصاء..»[١]. سبعون ألفاً في أسبوع! وفي بيت المقدس وحدَها! ومن قبلُ أقاموا مجازر في أنطاكية وفي مَعَرَّة النعمان التي أبادوا أهلها عن بكرة أبيهم، وقتلوا فيها مئة ألف! قال ابن الأثير في الكامل: «فوضع الفرنج فيهم السيفَ ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مئة ألف، وسَبَوا السَّبْيَ الكثير وملكوه». بل لم يسلم منهم إخوانهم في المِلَّة من النصارى! حتى اضطُرَّ البطريرك نفسه إلى الالتجاء إلى مصر؛ ليعيش في حماية العُبَيديين[٢].

فهل تعثر في تاريخ الفتوحات الإسلامية على مثيلاتها؟!

قد تتهم هذا المؤرخ العربي بالمبالغة، فلنَدَع المؤرخ الشهير ويلز (Wills) يحدثنا عن المذبحة الرهيبة حسب تعبيره، يقول: «حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة! وكان دم المقهورين يجري في الشوارع، حتى لقد كان الفُرسان يصيبهم رَشاش الدم وهم راكبون! وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يبكون من فَرْط الفرح، وخاضوا الدماء التي كانت تسيل كالخمر في مِعْصَرَة العنب! واتجهوا إلى الناقوس ورفعوا أيديهم المضَرَّجة بالدماء يصلون لله

---

(١) "الكامل في التاريخ"، ابن الأثير، ٩/ ١٩. وانظر: "العبر"، ابن خلدون ٥/ ٨٤.

(٢) "الصليبيون في الشرق"، نقولا زيادة، ص ١٠٤.

شكراً»[١]. وإذا اتهمتَ (ويلز) بالمبالغة فقد شهد شاهد عِيان صليبي هو (وليم الصوري)، الذي نقل إلينا بالتصوير الحيِّ مشاهد النصر بزهو وفخر! يقول[٢]: «اندفعوا هنا وهناك خلال شوارع وساحات المدينة مُستَلِّين سيوفهم، وبحماية دروعهم وخُوَذهم، وقتلوا جميعَ من صادفوا من الأعداء، بصرف النظر عن العمر أو الحالة، ودون تمييز، وقد انتشرت المذابح المخيفة في كلِّ مكان، وتكدست الرؤوس المقطوعة في كل ناحية، بحيث تعَذَّر الانتقال على الفور من مكان لآخر إلا على جُثَث المقتولين، وكان القادة قد شَقُّوا في وقت سابق طريقاً لهم بواسطة مسالكَ متنوعة إلى مركز المدينة تقريباً، وأحدثوا عندما تقدموا قتلاً لا يوصف، وتبع موكبهم حشدٌ من الناس متعطش لدماء الأعداء ومصمِّم تصميماً كاملاً على إبادتهم». وقال أيضاً: «ولقد كانت المجزرة التي ارتكبت في كل مكان من المدينة مخيفة جداً، وكان سفك الدماء رهيباً جداً لدرجة عانى فيها المنتصرون أحاسيسَ الرعب والاشمئزاز». ويتابع الصوري وهو من

---

(١) كتاب "الحروب الصليبية"، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ٥٢، نقلاً عن كتاب:

A short History of the Middle East P 74.

(٢) "تاريخ الحروب الصليبية" ١/ ٤٣٥، نقلاً عن "الفتوح الإسلامية عبر العصور"، د. عبد العزيز العمري، ص ٢١٥ .

مؤرخي الحروب الصليبية تصويرَ وحشية الصليبيين ومذابحهم المرعبة في بيت المقدس: «كان القسم الأكبر من الناس قد التجأ إلى ساحة الهيكل؛ لأنها واقعة في قسم منعزل من المدينة، وكانت محمية حماية قوية بسور وأبراج وبوَّابات، إلا أن هروبهم لم ينقذهم، حيث تبعهم تانكرد على الفور بالجزء الأكبر من الجيش، وشق طريقه إلى داخل الهيكل، ونقل معه - حسب إحدى الروايات بعد مذبحة مخيفة - كمية ضخمة من الذهب والفضة والجواهر، هذا ومن المعتقد أنه أعاد هذه الكنوزَ سالمة بعد أن كان الصخب قد هدأ. وعلم القادة الآخرون - بعد أن كانوا قتلوا من واجهوا في الأجزاء المختلفة من المدينة - أن الكثيرين قد هربوا للالتجاء في الأروقة المقدسة للهيكل، ولذلك اندفعوا بالإجماع إلى هناك، ودخلت مجموعةٌ كبيرة من الفرسان والرجَّالة قتلت جميع الذين كانوا قد التجؤوا إلى هناك، ولم تظهر أي شفقة لأي واحد منهم، وغُمر المكان كله بدم الضحايا. لقد كان بالفعل حُكمَ الله القويم الذي قضى على الذين دَنَّسوا حرم المسيح بطقوسهم الخرافية، وجعلوه مكاناً غريباً بالنسبة لأهله المؤمنين، أن يكفِّروا عن خطاياهم بالموت، وأن يطَهِّروا الأروقة المقدسة بسفك دمائهم.. وبات من المُحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت

أشلاءُ الجُثَث البشرية في كل مكان، وكانت الأرض ذاتها مُغطَّاة بدم القتلى، ولم يكن مشهَدُ الجثث التي فُصلت الرؤوس عنها والأضلاع المتناثرة في جميع الاتجاهات هو وحدَه الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها، فقد كان الأرهب من ذلك هو النظر إلى المنتصرين أنفسهم وهم ملَطَّخون بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم، إنه منظَرٌ مشؤوم جلب الرعب لجميع من واجهوهم. ويُروى أنه هلك داخل حرم الهيكل فقط قرابة عشرة آلاف من الكفرة، بالإضافة إلى المطروحين في كل مكان من المدينة والشوارع والساحات، حيث قُدِّر عددهم بما يساوي عدد القتلى داخل حرم الهيكل.

وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثاً عن التعساء الباقين على قيد الحياة، والذين يمكن أن يكونوا مختبئين في مداخلَ ضيقة، وطرق فرعية للنجاة من الموت، وسُحب هؤلاء على مرأى الجميع وذبحوا كالأغنام، وتشكل البعض في زمر واقتحموا المنازل حتى قبضوا على أرباب الأسر وزوجاتهم وأطفالهم، وجميع أسرهم، وقُتلت هذه الضحايا، أو قذفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي. وادعى كل واحد من المُغيرين ملكيةً دائمة للمنزل الذي كان قد اقتحمه، وذلك بالإضافة إلى تمَلُّك كل ما كان موجوداً فيه؛ لأن الحجاج كانوا قد اتفقوا قبل الاستيلاء على المدينة أن

كل رجل يحصل على شيء بعد الاستيلاء على المدينة بالقوة يكون حقاً له وملكاً إلى الأبد دون إزعاج، ونتيجة لهذا فتش الحجاج المدينة بدقة قصوى، وقتلوا سكانها بجرأة، وتغلغلوا في أكثر الأماكن عزلة وبعداً، واقتحموا غرف الأعداء الخاصة جداً، وعلق كل منتصر درعه وأسلحته عند مدخل البيت الذي استولى عليه إشارةً لكل من يقترب منه، حتى لا يتوقف عنده بل ليتجاوز ذلك المكان لأنه أصبح ملكاً لشخص آخر»[(١)].

ويعترف مؤرخو الحملات الصليبية ببشاعة السلوك البربري الذي أقدم عليه الصليبيون، فذكر مؤرخ صليبي ممن شهد هذه المذابح وهو (ريموند أوف أجيل)، أنه عندما توجه لزيارة ساحة المعبد غداة تلك المذبحة، لم يستطع أن يشُقَّ طريقه وسط أشلاء القتلى إلا بصعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه، وإلى مثل هذا القول أشار (وليم الصوري). وقال مؤرخ صليبي آخر وهو (أنتوني برج)[(٢)] في تصوير فظائع النصارى في بيت المقدس التي تذكِّر بفظائع التتار لما دخلوا بغداد، والعجيب أنه يتحدث عنها بمشاعرَ سادية غريبة شاذة لا تمتُّ إلى الإنسانية بصلة، ويسميها نصراً! يقول

(١) المرجع السابق، ص ٢١٥ .
(٢) المرجع السابق، ص ٢١٨ .





برج: «وبعد فوزهم بالنصر العظيم، وبعد الحرارة والخوف وسفك الدماء في اليومين أو الثلاثة الأخيرة في حالة شعور مفرط هستيري تقريباً!، وبعد ذلك لم يشُكُّوا لحظة في أن المسلمين المدافعين عن القدس كانوا كارهين للرب، ومدنسين للأماكن المقدسة، وعاملين لدى أعداء المسيح، وعابدين لشيء بغيض في مكان مهجور ذُكر في الإنجيل، ولذلك قاموا بقتل كل رجل وامرأة وطفل وجدوهم في المدينة بفرح وباطمئنان تامَّيْن، وهم يرون أنهم كانوا ينفِّذون إرادة الرب!، ودامت المذبحة طَوال الليل وقسماً من الليلة التالية. وعندما ذهب الراهب (ريموند أوف أغيلرز) لزيارة منطقة الهيكل في صباح اليوم التالي، وجدها قَفْراء مليئة بالجثث، بحيث أن المسجد الأقصى - وعلى لوائه يرفرف علم تانكرد - وقبة الصخرة كانا مليئين بجثث المذبوحين الذين وصلت دماؤهم لمستوى الركب، أما الناجون وحدهم من المدينة فكانوا الحاكم وطائفة من حرسه الذين سمح لهم (ريموند) بمغادرتها بعد دفع فدية ضخمة وتسليم خزائن هائلة، وذُبح الباقون بمن فيهم اليهود الذين حُشدوا في معبدهم الرئيسي، ثم أُضرمت النار في المبنى وهم أحياء، وعندما لم يبقَ من يقتلونه، سار المنتصرون خلال شوارع المدينة التي لا تزال مفروشة بالجثث وتفوح منها رائحة

الموت، إلى كنيسة القيامة لتقديم الشكر للرب لرحمته العظيمة المتنوعة، ومن أجل انتصار الصليب الذي فازوا بها باسمه».

ولـ(طامس نيوتن): "تفسير على الإخبار عن الحوادث المستقبلة المندرجة في الكتب المقدسة". وطبع هذا التفسير سنة **١٨٠٣**م في لندن. ففي الصفحة **٦٥** من المجلد الثاني في بيان تسلُّط أهل التثليث على أورشليم: «فتحوا أورشليم في الخامس عشر من شهور تموز الرومي سنة **١٠٩٩** بعد ما حاصروا خمس أسبوعات (هكذا)، وقتلوا غير المسيحيين، فقتلوا أزيد من سبعين ألفاً من المسلمين، وجمعوا اليهود وأحرقوهم ووجدوا في المساجد غنائم عظيمة»[1].

هذا بعض ما ارتكبه الصليبيون من مجازر تقشعر لها الأبدان، ودماء أهريقت جرت أنهاراً، وكل ذلك فعلوه باسم المسيح، والمسيحُ عيسى عليه السلام منه بَراء، وبإرادة الرب! فأي ربٍّ هذا الذي يأمر بهذا الفجور؟! وأكرر لك عبارة (أنتوني برج): «ولذلك قاموا بقتل كل رجل وامرأة وطفل وجدوهم في المدينة بفرح وباطمئنان تامَّيْن، وهم يرون أنهم كانوا ينفذون إرادة الرب» فتأمل!.

لقد فتح المسلمون القدس في صدر الإسلام في عهد

(١) "إظهار الحق"، رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص٤٨٩.

عمر بن الخطاب، وحرَّروها من أيدي الصليبيين في عهد الملك صلاح الدين الأيوبي، فهل قابلوهم السيئة بالسيئة؟! أرجو أن تقرأ التاريخ، واقرأ كتاب الأمان من عمر رضي الله عنه لنصارى الشام لتوازن وتقارن؛ لتعرف من الذين ينفِّذون إرادة الرب الرحمن الرحيم! ومن الرحماء ومن الإرهابيون؟ ولا يخفى هذا على لبيب! والفظائع التي صدرت عن النصارى لليهود، وعن النصارى بعضهم لبعض، أدهى وأمر، ولولا خشيةُ التطويل والخروج عن الموضوع لسردتها، وأكتفي بهذا القدر، ولكن أقول لك قبل أن نغادر هذا الفصل: انظر إلى هؤلاء الطاعنين على محمد ﷺ، المستهزئين به، هل قرؤوا تاريخهم القديم منه والمعاصر، المملوء جَوْراً وظلماً لأهل ملتهم وغير ملتهم، أم يتعامَوْن عنه؟.

❁❁❁❁❁

شبهةٌ قوية والردُّ عليها:

كأني بالقارئ الكريم يخاطبني بأصدق لهجة، ويقول: أَوَدُّ لو أصدِّقك فيما تقوله عن محمد الرؤوف الرحيم، ولكن أجد صعوبة بالغة في الثبات على هذه القناعة؛ لأن ما يرتكبه بعض المسلمين من قتل المدنيين وخطف السيَّاح وترويع الآمنين، يزرع في نفسي الشكَّ في الحقائق التي تقدمها عن الإسلام ونبيه محمد! .

لا ألومك على هذا الاعتراض، فبعض الممارسات المرَوِّعة الشاذة تشوش الصورة وتشوِّهها، ولكن هل من المعقول أن تلومَ المسيح على ما يرتكبه النصارى من أخطاء؟ ثمَّ إن هؤلاء أقلية لا تمثِّل أمة بأسرها، فكيف تحمَّلُ أمةٌ جريرة طائفة قليلة منها، أخذت النصوص عن جهلٍ وهوى من غير فقه أو تدبر، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾(١)، وأغلب الدارسين والباحثين لهذه الظاهرة يفسرونها بأنها جاءت ردَّةَ فعل على الظلم العظيم الذي يقع على المسلمين، وأن البَطالة والفقر والإحباط والاحتلال كل ذلك عوامل ساهمت في نشوء هذه الظاهرة. وأنا لا أسوِّغ تصرفاتهم، فالإسلام لا يقرُّها، وقد كفل حقوق غير المسلمين، وصان دماءهم وأموالهم وأعراضهم وسائر حقوقهم، والنبيُّ ﷺ يقول: «مَن قَتلَ مُعاهَداً لم يَرِحْ رائحةَ الجنة، وإِنّ ريحَها توجَدُ من مَسيرةِ أربعين عاماً»(٢). ومن المعلوم أن شريعة الإسلام قد جاءت بحفظ الضروريات الخمس، وحرَّمت الاعتداء عليها، وهي: الدين، والنفس، والمال، والعرض، والعقل. ولا يختلف المسلمون فى تحريم الاعتداء على الأنفس المعصومة مسلمة كانت أو غير مسلمة.

---

(١) الأنعام: ١٦٤ .

(٢) رواه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبدالله بن عَمرو.







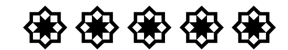
خاتمة

ما كتبته عن الرحمة المهداة لا يعدو أن يكون قطرةً من بحر من سيرته العطرة وشمائله الكريمة وأخلاقه العظيمة ﷺ، أهديها إلى إخواني من الغربيين والنصارى منهم خاصة، أردت أن أوصل إليهم رسالةً وجهها إليهم رسولُ الإنسانية - وصيُّ السيد المسيح وبشارته وأخوه الأقرب - منذ أكثرَ من ألف وأربع مئة عام، ولكن انقطع بها البريد، وسُدَّ في وجهها الطريق، فعسى أن تصلَ، فتبلغ الأسماع، وتتأمَّلَها العقول، وتتفتح لها القلوب، ويَسعد بها الناس في أوربة وأمريكا واليابان وغيرها، أو بتعبير آخر تكتمل سعادتهم، فهم يمتلكون أسباب السعادة المادية، ولكنهم يفتقرون إلى السعادة الروحية، ويفتقدون الأمنَ النفسي بسبب الخَواء الروحي وطغيان النزعة المادية، فعسى أن يجمعَ الله لهم السعادة بشِقَّيها: المادي والروحي.

ولكن الدور الأهم يقع على عاتق المسلمين الذين ابتعدوا عن دينهم كثيراً، فأساؤوا إلى دينهم أكثرَ مما أحسنوا إليه، وحَجَبوا صورته المضيئة الجميلة بانحطاطهم المعرفيِّ والأخلاقي.



وكما بدأتُ هذه الرسالة بكلمة المستشرق الإسباني (جان ليك) أختمها ببرقية عاجلة بعثها (مرماديوك) إلى المسلمين، يقول فيها: إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم بنفس السرعة التي نشروها بها سابقاً، إذا رجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حينما قاموا بدورهم الأول؛ لأن هذا العالمَ الخاوي لا يستطيع أن يقفَ أمام حضارتهم!. انتهت برقية مرماديوك، وأنا أبعثها إلى المسلمين في الغرب، لعلهم يدركون مغزاها!.





مسرد المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

* القرآن الكريم.

* مصادر السنة النبوية:

الكتب الستة(*)[1]: الجامع الصحيح للبخاري، وصحيح مسلم، وكتب السنن الأربعة، ومسند الإمام أحمد، والموطأ للإمام مالك، والمستدرك للحاكم، والمعاجم الثلاثة للطبراني، وشعب الإيمان للبيهقي وغيرها.

ثانيًا: المراجع:

١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، وهبة الزحيلي، دار الفكر، ط٤/ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢) إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٣) البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير الدمشقي.

(١) اعتمدت في العزو إلى صحيح البخاري علىٰ طبعة بيت الأفكار الدولية، وعلى طبعة د. مصطفىٰ البغا، وفي سائر الكتب الستة على طبعات بيت الأفكار الدولية.

٤) تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد ﷺ، د.نصر الله عبد الرحمن أبو طالب، دار الوفاء، المنصورة، ط١/ ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

٥) التبشير والاستشراق، محمد عزت إسماعيل الطهطاوي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١/ ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٦) الحروب الصليبية، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٧) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، د. موريس بوكاي، دار المعارف، ط ٤ .

٨) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار ابن حزم، بيروت، ط١/ ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢ م.

٩) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الكويت، ط١٤/ ١٤٠٧-١٩٨٦م.

١٠) السيرة النبوية، ابن هشام.

١١) السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة

الإسلامية، عمان، ط١ .

١٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دراسة تحليلية، د. مهدي رزق الله أحمد، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١/ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٣) شرح ديوان المتنبي، عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

١٤) شمس الله تسطع على الغرب(*)، زيغريد هونكه، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٤م.

١٥) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، دار النفائس، الأردن، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٦) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني.

(*) قال العلامة المربي عبدالرحمن الباني: «الترجمة الصحيحة لكتاب الباحثة الألمانية زيغريد هونكه: "شمس الله علىٰ أرض الظلمات"، كذا أرادت مؤلفته، لكن صدرت لهذا الكتاب ترجمتان؛ إحداهما دخل فيها اللوث القومي! فزُوِّر اسم الكتاب فأصبح: "شمس العرب تسطع علىٰ الغرب"!». من تقديمه لكتاب "العقل عند شيخ الإسلام ابن تيمية" للدكتور فهمي قطب النجار، ص ٦.

١٧) فقه السيرة، محمد الغزالي، دار البيان للتراث، القاهرة، ط١/ ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

١٨) الكامل في التاريخ، ابن الأثير.

١٩) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة.

٢٠) الموافقات في أصول الفقه، إبراهيم بن موسى اللخمي الغِرناطي المالكي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.

٢١) الموسوعة الكويتية: مادة: (تيسير، رخصة، رفع الحرج).

٢٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية، نشر الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

المجلات والدوريات:

* مجلة المجتمع الكويتية، العدد ١١٠٩، المرأة بين المجتمع الإسلامي والمجتمع الغربي، علي عزت بيغوفيتش.

* مجلة أمتي الكويتية، العدد الحادي عشر، ابن باديس كان أمة وحده.

سيرة الكاتب

الاسم: محمد علي الخطيب.

تاريخ الولادة: **٢/ ٣/ ١٩٦١**م.

الجنسية: سوري، ومقيم في الكويت.

الشهادات والإجازات:

- الإعدادية الشرعية، والثانوية الشرعية بدمشق، معهد التوجيه الإسلامي سابقاً.

- إجازة في الشريعة الإسلامية، من جامعة دمشق عام **١٩٨٣**م.

- دبلوم التأهيل التربوي **١٩٨٩**م.

- دبلوم دراسات عليا تحضيرية، من كلية الأوزاعي للدراسات الإسلامية - بيروت.

- إجازة في سماع أسانيد الكتب الستة والموطأ على الشيخ عبد الوكيل عبد الحق الهاشمي، والشيخ ثناء الله المدني، والشيخ إسرائيل النَّدْوي، حفظهم الله وبارك في أعمارهم.

العمل المهني والتربوي:

- معلم تربية إسلامية في وزارة التربية بدولة الكويت، منذ عام **١٩٩٢**م.

- محرِّر صحفي في مجلة (أمتي)، منذ عام **٢٠٠٤**م.

الإنتاج العلمي والأدبي:

١- بطولات إسلامية: سلسلة قصصية تاريخية، صادرة عن دار غِراس للدعاية والنشر والإعلان- الكويت.

٢- التوازن بين الدنيا والآخرة في منهج قرآني: حصل على المركز الأول في مسابقة الأمانة العامة للأوقاف- دولة الكويت.

٣- مفهوم العمل التطوُّعي ودوره في بناء المجتمع وتنميته: دراسة ميدانية عن العمل الخيري والإغاثي في دولة الكويت. حصل على المركز الأول في مسابقة إدارة الثقافة الإسلامية- دولة الكويت.

٤- التوازن بين الروحية والمادية في الإسلام: حصل على المركز الثالث في مسابقة الأمانة العامة للأوقاف- دولة الكويت.

٥- مفهوم الترفيه وفلسفته وضوابطه الشرعية: دراسة ميدانية عن الترفيه في دولة الكويت. حصل على المركز الثالث في مسابقة إدارة الثقافة الإسلامية- دولة الكويت.

٦- وسطية الحضارة الإسلامية: حصل على المركز الثالث أيضاً في مسابقة إدارة الثقافة الإسلامية- دولة الكويت.

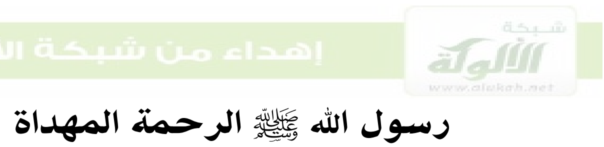
٧- الرحمة المهداة: حصل على المركز الرابع بفرع البحوث العلمية، في مسابقة: انصر نبيَّك وكن داعيًا، التي أقامها موقع الألوكة الإلكتروني- المملكة العربية السعودية.

٨- هدي النبي في التعامل مع المخالفين لدعوته في العهد المكي: حصل على المركز الثاني بفرع البحوث العلمية، في مسابقة: النفس المطمئنة، التي أقامها موقع الألوكة الإلكتروني- المملكة العربية السعودية.

٩- عشرات المقالات المنشورة في مجلات ومواقع إلكترونية، وخصوصًا مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، ومجلة أمتي، ومجلة النور.

١٠- قصص أطفال: تنشر في مجلة الوعي، ومنها سلسلة تعليم التوحيد، وقصة وحديث.





الفِهرسُ العامُّ

الموضـــوع ..... رقم الصفحة









هذا الكتاب

في هذه المرحلةِ من الضَّعف التي تمرُّ بها أمتُنا المسلمة، اجترأ مَن لا خَلاقَ لهم من أعدائها على نفث سُموم غِلِّهم وحِقدهم بنشر الأكاذيب والأباطيل على الإسلام ونبيِّ المسلمين.

وهذا البحثُ الذي بين يديك أيها القارئُ الكريم هو ردٌّ لتلك الأباطيل وبيانُ زيفها وفسادها، وبخاصَّة فِريةُ العنف والإرهاب والغِلظَة، التي افتُري بها على نبيِّنا ﷺ! واعتمَدَ الباحثُ على الاستِدلال بالحُجَج العقليَّة والتاريخيَّة والماديَّة المحسوسَة؛ ليكونَ ذلك أدعى إلى قَبول الحقِّ والإذعان لبَدَهيَّاته.



جائزة الألوكة

انطلاقًا من حرص شبكة الألوكة على إذكاء روح التنافس الهادف بين الكتَّاب والمثقفين والمبدعين، وانسجامًا مع الجهود التي تبذلها المؤسَّسات الثقافية المختلفة، أُنشِئت جائزة الألوكة للإبداع في مطلع عام ١٤٢٧هـ، متضمِّنةً عددًا من المسابقات العلمية والثقافية والأدبية المتميزة، التي احتلَّت مكانة مرموقة بين كبريات المسابقات الثقافية العربية.

- جائزة الألوكة للإبداع إسهامٌ في صناعة الثقافة الإلكترونية التفاعلية الهادفة.
- جائزة الألوكة للإبداع تحفيزٌ لمواهب المبدعين، وخطوة جادَّة في تطوير مسيرتنا المعرفية.

المسابقة الأولى:

مسابقة انصر نبيك .. وكن داعياً

أطلقتها شبكة الألوكة لنصرة نبيِّ الأمَّة محمد ﷺ، في إثر محاولات بعض الصُّحُف الغربية الإساءة إلى جَنابه الشريف، فكانت خيرَ حافز ومشجِّع على الذبِّ عن مقام النبوَّة السامي، بمنهج علميٍّ مقنع، وأسلوب أدبيٍّ ممتع.

وتألفت المسابقة من أربعة فروع، هي: البحث العلمي، والقصة القصيرة، والمقالة الصحفية، ومقالات الناشئة.

وبلغت جوائزها: تسعين ألف ريال.





